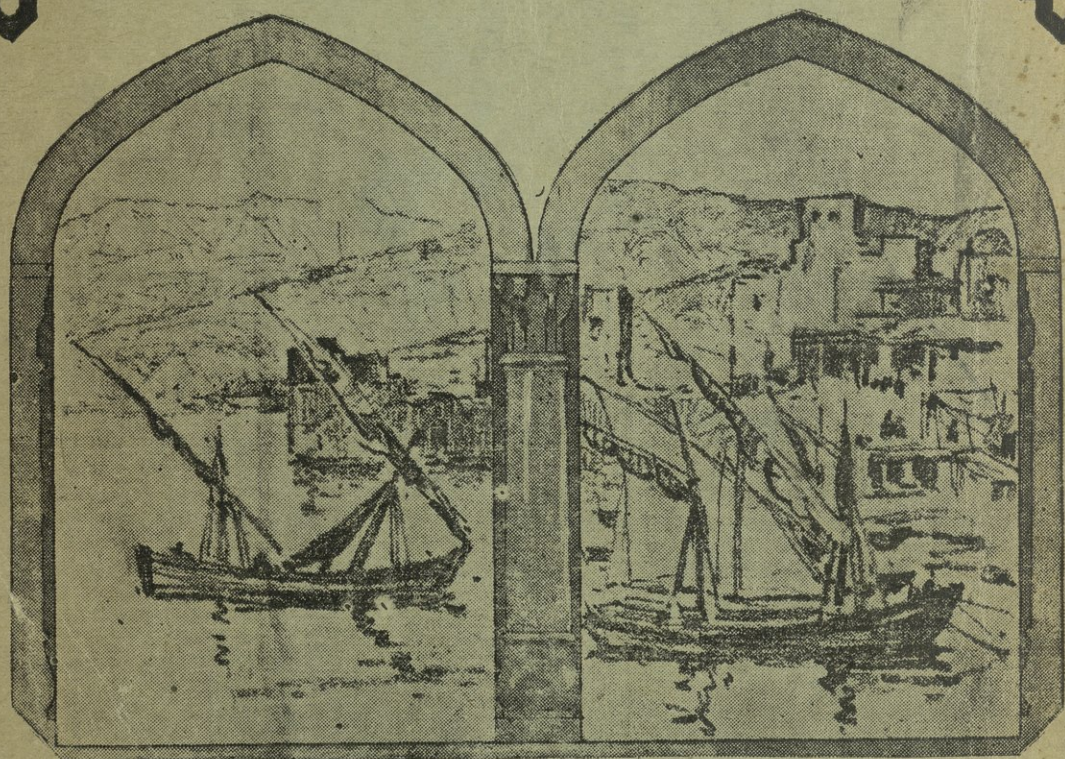


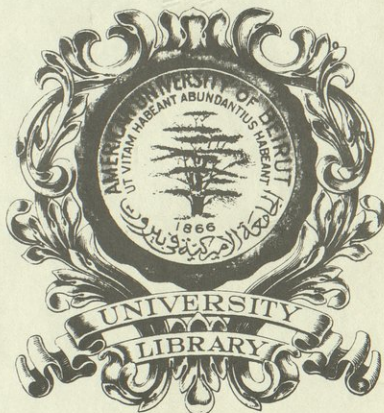
فِكْوَ حَكِيم

مِیْناءُ الْقَدَر

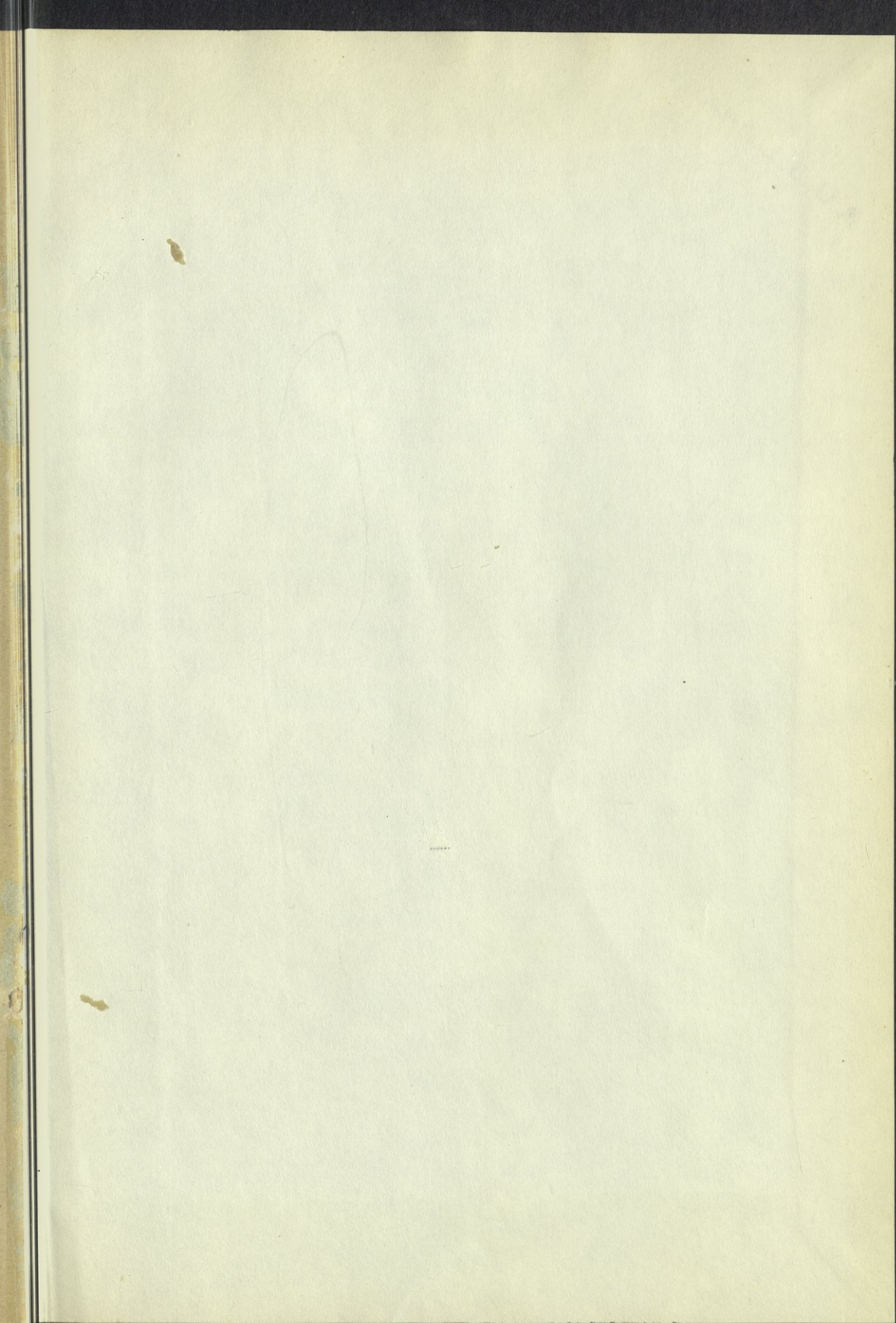


A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U. B. LIBRARY



89273

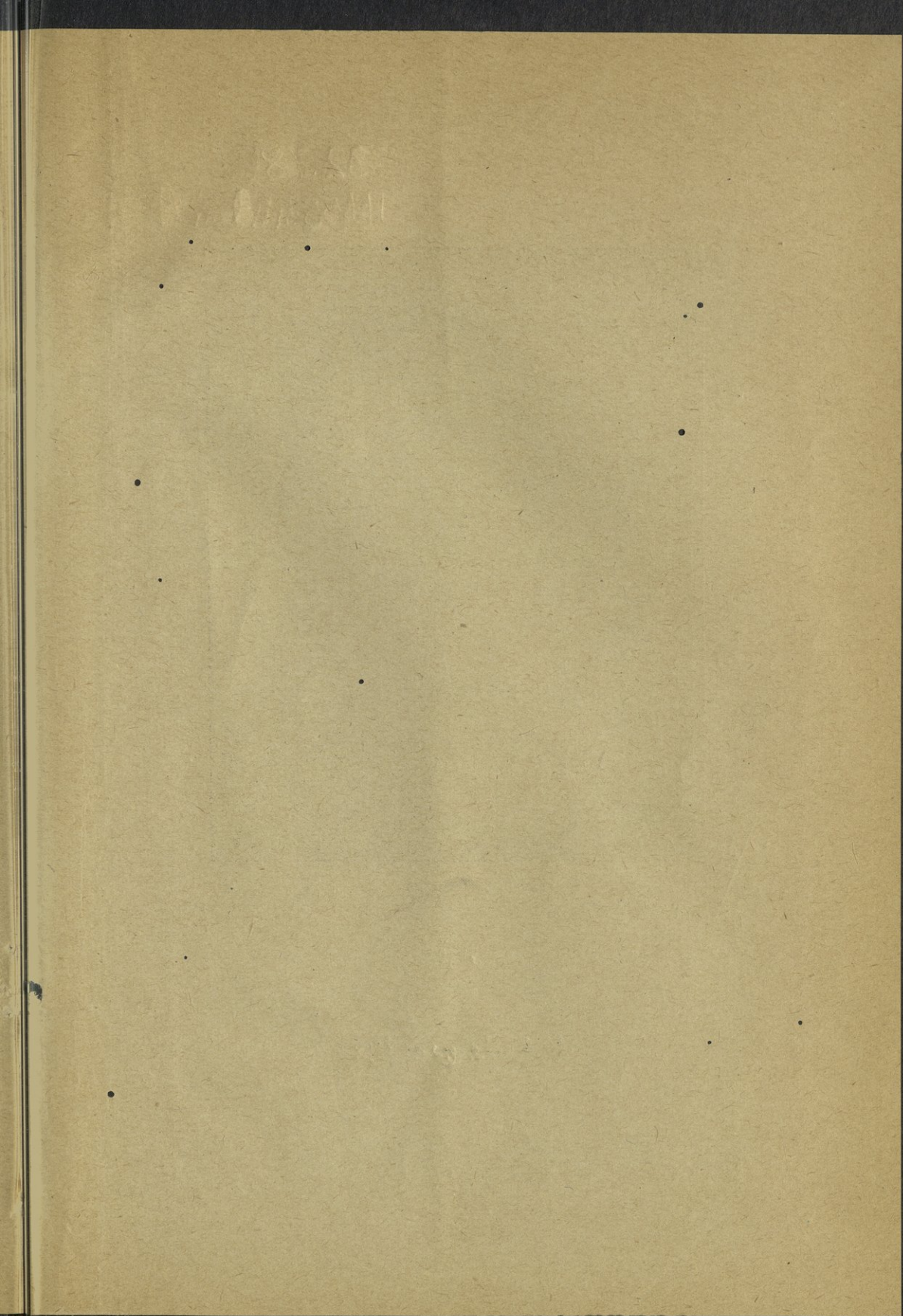
Ha 441 mi A



قراء

بريشة جورج بولس خوري

٥٨/٢/٢
م. الأستاذ
الذي أتى على الله
أدباً فقلت
فقلت

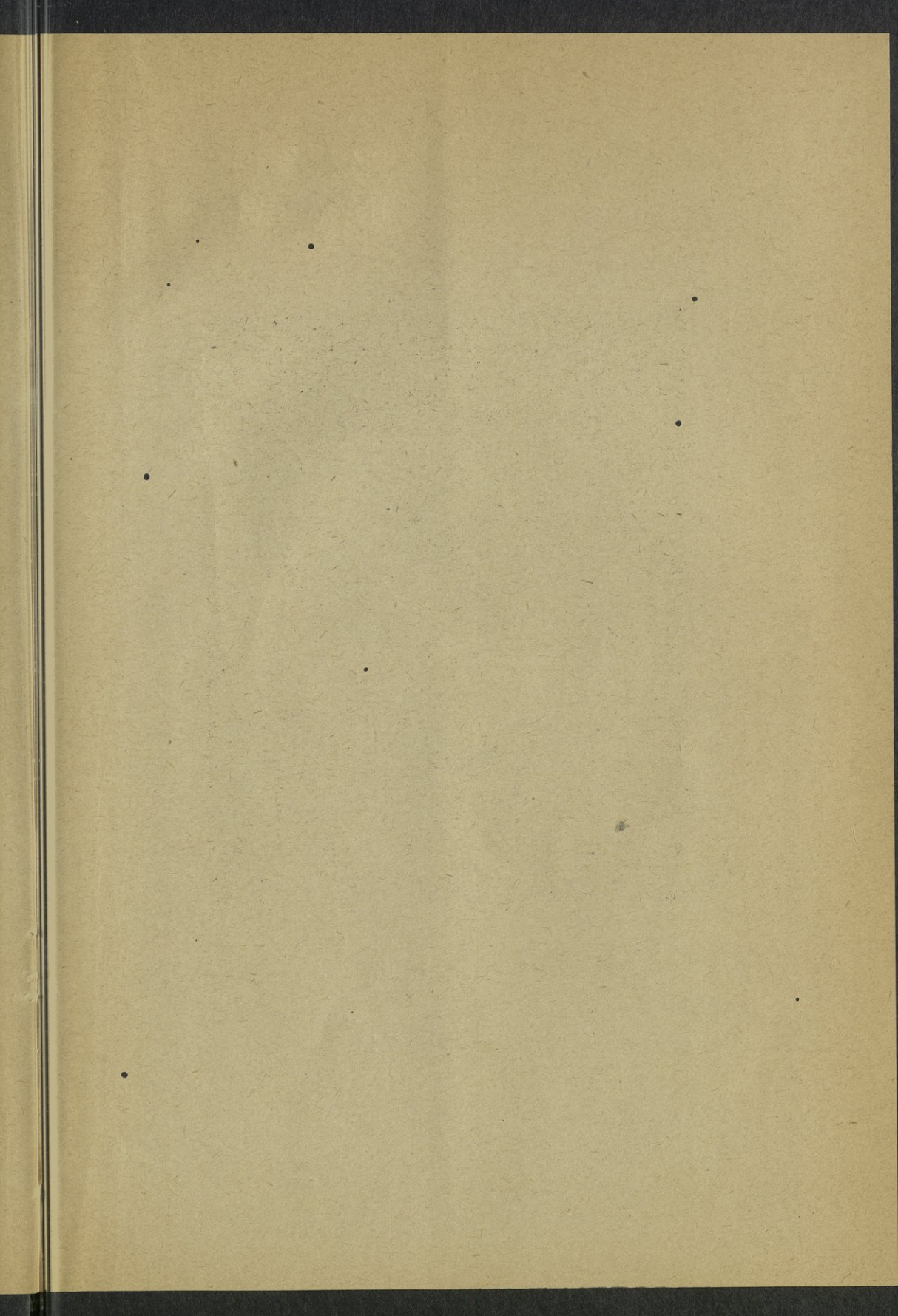




126-397

الملسكة مبراخت

بريشة جورج بولس خوري



مقدمة .

سعيد رحيل

كلامٌ على القدر ، لغز الشرق الابدي (وحيثُ للحبُّ بذاته
فصلٌ ولا ابهى !) ، كيف يمكن تصوُّره الا في اطار من قبالة البحر ، ذي
النداء السحري الذي يشيلُ معاً بقلبك وبكرة الارض ؟ !

تُرى ، اذن ، لروعته البحرية ، المطلسمة بالقدر ، كان موضوع
السندباد أجمل ما صدرَّ العرب الى العالم ؟

لقد طالما أخذتُ بطائفة من قيمهم الخيرة البارعة ، كحدة التقديمية
في بوادر لعمر يمكن الاثمام بها لاحداث نهضة لا يقف بوجهها حتى المعتقده ،
أو كلمة الهامون تفجر كل أرسطو : « نظرتُ فلم أجدُ أجمل من النظر في
عقول الناس ! » او - على الأخص - حكم لعلّي تحفزك على التساؤل :
كيف يسع غزارة بُريت في القرن السابع ان تبلغ هذا المبلغ من تفتيق
سراً الحياة في خاطرة أنيقة كالشمس ؟

الا انه ، برغم من سطو هذه القرائد على ذهن المنقب عن كنوزهم ،
يظل للخيال الطريف الذي أطلع حكايات السندباد نكهة خاصة بين جميع
أطايب المقدرات .

تلك الحكايات ؟ لسوف يهرق في تعقمها واللغو حولها خبرٌ كثير .

هذا فكتور حكيم - ذو الريشة التي تضارع الازميل الفلورنسي، في لغة باريس، احدى وسائلنا الى الجمهور الكوني - يفتتح اليوم بلغة العرب، وقد افتنن بها حديثاً، كلاماً ولا اعمق على موضوع المواضع في الشرق. من مرفأٍ يشرفه بأن يدعو بيروت، اطلق - على بركات الريح - سفينة السندباد، بطل القلق الذي لا يهدأ. ثم أطلقها كرهة أخرى. وهكذا وهكذا حتى لتمر الحياة كلها متسلسلة في مغامرة السائح العجب. ترى سندباد هو العقل البشري - جميعاً بما فيه القلب - والبحر هو الأزل؟

يا للأسئلة الأنيقة التي تأخذ في الالتماع لك، كلما وغلّت في مرافقة هذا الجازون الفكري! مرهفة هي، كأنها تماثيل من رخام تكاد - لوفرة ما افتنن في نحتها - تهوي من افاريز البرتنون على العقل. وتغمدو احيانا تفاحة تقدمها لك - وقد عصف عاصف الريح بالبحر جميعاً - يدٌ لحواء خرجت من اللجة تقول: الجنة؟ كذب كذب! ما كانت الجنة في عدن. انها وستبقى في البحر.

هنا مس فكتور حكيم أطرف وتر، وأغناه. بل قبض على الغنى نفسه أو أجاعه اليه. قبله كان العزف كله على هذه الخيطان الدقيقة التي ترتجف على العود. فرفعه الى المستويات العلى، واذا هو يندفق الى الاذن والحلق وغصص الصدر، من الجبال المشدودة على مركب عتي يغالب الاعصار وجبال الموج.

رحلة - أغنية ! كبرى كالحياة !! اذ السفينة - العود متنقلة ،
لا تهدأ ، على أصابع الوجود المهيّب . أو تراها ستقف في ميناء ؟ انها ان فعلت
أصبت بدوار ، و خلت الميناء ستنتقلع جملةً من على صخرتها الازلية ، ترمي
بنفسها في المركب ، رفيقةً لك ولا حلامك المدهبة الكبار ، جاعلةً منك
مخلوقاً مترف الوجود : مرة مزيجاً من شيطان و ملاك ، صلصال و خاطرة ،
ومرة لفظةً في كتاب ، يعمل بها المؤلف ما يشاء ، ولكن في كلا الحالين
انساناً يلهو بتفكيك اهوائه و تدميرها ثم صّبها من جديد و تركيبها في
المكان الاُخلق ، حتى ليصنع نفسه برمتها أخرى المقدرات ، أخرى البهاء .
هذا الموضوع ؟! انه لا أجراً ولا أجل . أعنف من اعمال ظفر في
الحجر . يخط الكلمة الباقية : الانسان لا يكون الا أوان يجازف . يجازف
بوجوده وبلا وجوده . يجازف حتى بحبه الغني العظيم .

ماذا ؟ ايكون الله قد بدأ الكون هنية قال : سأخرج مما انا . اصنع
من شغفي بالقوة ما لا يكتنّه من اصنعهم . وتكون لذتي في ابقاء اللغز - لغز
الوجود - وفقاً عليّ ، مباعداً بماهية عنصرهم ، مباعداً حتى ليظنون انهم ،
عليّ انا ، لغز ؟! وتبدأ رحلتهم فيه ، رحلتهم ... اليهم ، وبهذا ، لربما ، الي !

سعيد عقل

رحلة ، كانون الآخر ١٩٥٦

الاهداء

الى جدي لأمي

المرمومة

ام عبد الله

892.78
H 155 mi A

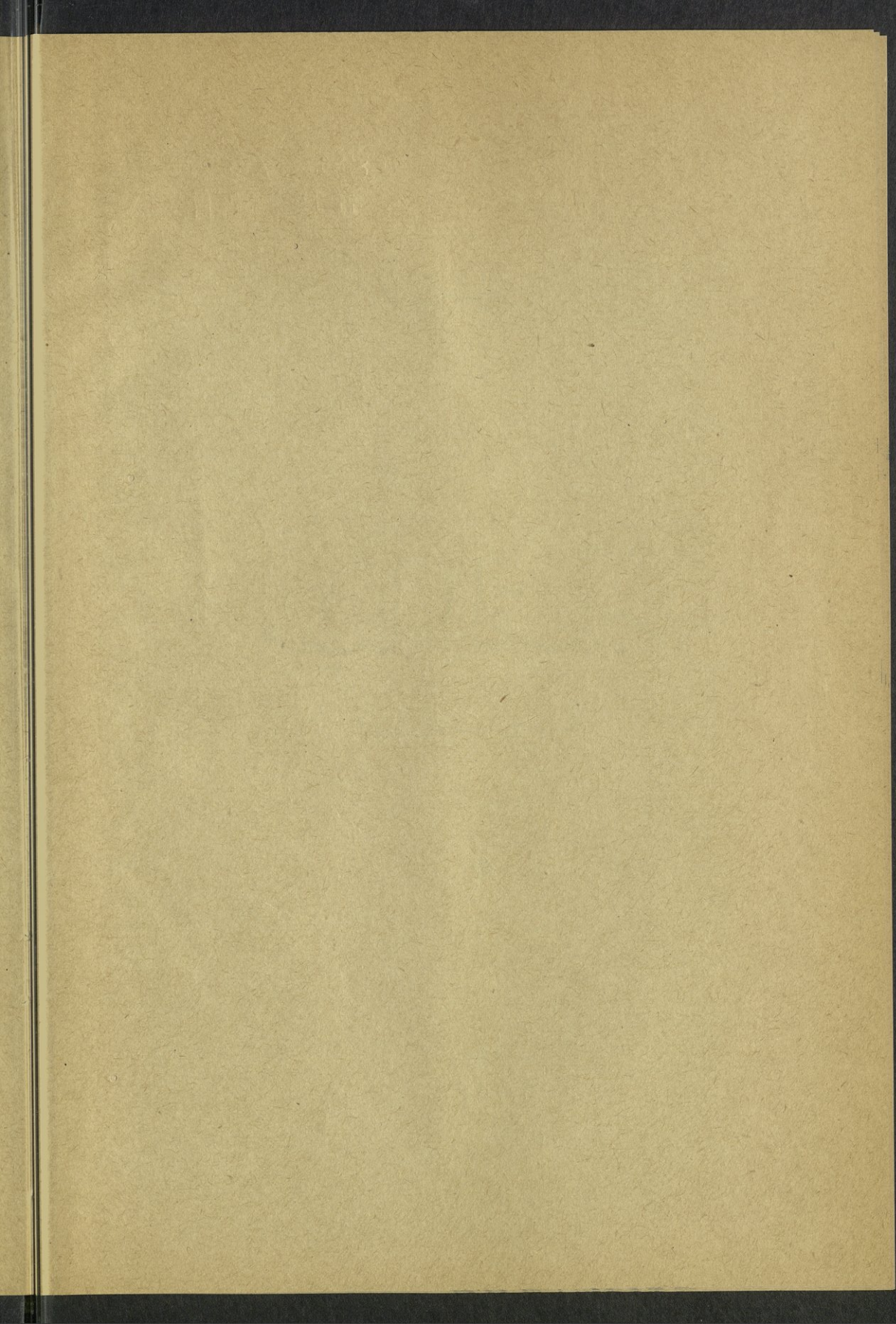
فكتور حكيم

مِثْنَاءُ الْقَتْلِ

قِصَّةُ بَيْرُوتِیَّة



بیروت
١٩٥٥



المقدمة

حلت ظروف غريبة على السندباد فجعلته شاذاً عن القاعدة المألوفة ،
العوبة من الاعيب الدهر ، وتبدلت اطواره وحركات النفس فيه ، فينما كان
في الماضي القريب من اهتداء الناس خلقاً نهج نهج التجار في طلب الرزق ،
في الشراء والبيع ، لا يساهم الا في الاعمال التي تعود عليه بالنفع ، انقلب
مغامراً يتعرض للاخطار ويستلذها فلا يخشى العاقبة . ويجازف بكل ماهو
عزيز عليه فذاق مرارة الموت مراراً وخابت آماله كلما نجا من الاخطار ،
فجعل من سيرته اسفاراً ، رحمه الله .

ذلك هو السندباد صاحب السيرة ، وقد لا تعرفونه تمام المعرفة ، اما
انا فادري به من غيري لان حياته كحياتي ، غريبة عن اطوار الناس .
بلغت العقد الثالث من عمري ولم يحصل لي شيء يذكر ثم خرجت
من حياتي العادية خروج المثل الذي ينتهي من القيام بدور يمثله في رواية ،
فيستأنف دوره في الحياة ، غير انني علقته بدور خطير امثله ، الا وهو
الاتصال بعالم الغيب .

يا لها من اسرار رهيبة ادركتها ، فيها سر كامن بضمير الزمان ، وقد
باتت عندي حقيقة ملموسة ،

قصة البيت المرحوم

اسمي شريف الاثر من اهالي مدينة بيروت ، تنتمي عائلتي الى اسرة بغدادية تنحدر من آل السندباد الشهير بالبحري . ومن غريب الصدف ان جدي كان بحرياً وكثيراً ما كان يحدثني وانا طفل ، عن مغامراته في عرض البحار ، فيشوقني الى ما في الغربة من مشقات تغلب عليها هو بفضل ساعد مفتول وارادة لا تقهر .

عثر جدي يوماً في اثناء احدى رحلاته هو ورفيق له ، في جزيرة ، على كنز من الدنانير الحمر فاقتسماه بعد ان تحقق لديهما ان ليس في المقاتلة بينهما من فائدة ، لما كان يشهد للفريقين من شدة وبأس . وهما من العمالقة الذين لا يدركون للخوف معنى ، لهما في البطش ايام مشهودة . فتمت القسمة بدون كثير جدال . ثم عاد الفريقان الى ارض الوطن ، فنعّم جدي بثروته وترك الملاحة ، اما رفيقه فاعاد الكرة وسافر بعد ان دفن الكنز في بستان له مجاور لبيته ، ثم انقطعت اخباره وورثه اولاده ، فاسرع جدي الى شراء بيت رفيقه مع البستان المجاور ، اعتقاداً منه انه سيعثر على الكنز الدفين ، وعبثاً حاول العثور عليه ثم مات .

كان والدي لا يبالي بتلك الرواية ولم يعرها كثير اهمية ومن قوله لي :
« خرافات ! اساطير لا اساس لها ولا اصل ، رحم الله جدك لقد

اقبل على الحرف في آخر ايامه وكانت روايته وهما وخيالاً .

ثم هجر اهلي هذا البيت لما اصابهم فيه من رطوبة الجدران القديمة
النزارة ، وعزم والدي علي بيعه فلم يتوفق ثم مات وغدا البيت
من نصيبي .

فانتقلت الى هذا البيت وسكنت فيه لان رواية جدي كانت لم تزل
راسخة في ذهني ، فكنت كلما انتهيت من عمالي في ميناء بيروت واسواقها ،
افتح باب البستان فيقشعر بدني ، من صرير الاقفال الظاهرة عليها آثار الصدأ
وصيحة الحشب المنتهي من الهرم ، لكنني احتفظت بكل ما في البستان على
ما كان عليه لعني اثر على الكنز ، فكانت تعاودني الذكريات القديمة
عند مشاهدة بركة الماء والسور المصنوع من الحجر الرملي ، وعلى الحد
الشرقي خط الصبار والرماتين ، وشجر النارج والزيتونه الكبيرة وعلى
مقربة منها تينة مكساة . بينما انا احفر الارض في طولها وعرضها ،

ولما شعرت بالفشل المحقق ، تعلقت بتلك البقعة المهمة ، فزرعت فيها
البقول ، وعالجت الاشجار القائمة ، وغرست اغراساً جديدة اخذت تنمو
بسرعة ما عدا ليمونه واحدة استقرت في مكانها ، وهي باقية على شكلها
الاول ، حاولت ان اقتلع تلك الغرسة الغنيدة ، الا ان مظاهر الحياة كانت
باقية عليها فتعجبت وقلت :

- حرام !

وفيا انا احفر حولها ذات يوم ، عمق المعول في الارض فانهارت ،
وكدت اقع لساعتي وانا ساع لاخراج المعول من مكانه ، فاذا بالحفرة قد
اتسعت وعمقت ، فكشفت عن حلقة كالحاتم لاصقة ببلاطة هي اشبه شيء
بحجر الضريح ، فانقطعت انفاسي وصحت مذعوراً :
— عسى ان يكون هذا مكان الكنز الدفين .

قبضت على الحلقة ورفعت البلاطة بعد كد وجد ، فظهر سلم رخامي
نزلت درجاته فاذا هي تسع واربعون تؤدي الى دهليز مسقوف يغور
تحت ارض البستان الى مدى بعيد .

ضائق نفسي لاول وهلة فتراجعت وصعدت الى البيت وتزودت
مصباحاً وشيئاً من القوت والماء ، وعدت مسرعاً الى الدهليز . فشعرت
برجفة ممزوجة بلذة فائقة ، كأز دافعاً سرياً دفعني الى بطن الارض .

واستأنفت سيري بين الصخور والحجارة اتفقد مخاليء التلة ومعارجها ،
الى ان وصلت الى منطقة يسيطر عليها الظلام والموت ، فيها غرف عديدة
تتعاقب ابوابها كأنها قصر الفناء ، وقناطر ونوافذ لاصقة بالتربة
الممزوجة بعظام .

وتبينت على ضوء المصباح بقايا من معدات الملاحاة : من مجاذيف وقلوع
وشباك ، فباتت الارض ملساء وكأنها مبلطة .

ثم انفتحت امامي مغارة هائلة كمغارة السيد الحضر ظهرت فيها

آثار للحياة يطير فيها البوم والوطاوط ويتدلى من سققتها العنكبوت .
واذا بالجووف قد ضاق ، وبالأنحدار قد زال ، فلاح من بعيد نور
ضئيل ، وما ان تقدمت حتى ظهر منفذ يطل على البحر



الرحلة الاولى

فطرة الطبيعة

اقبلت على الشاطيء فشاهدت جماعة من البحارة يتأهبون للسفر ،
وجوههم بيضاء مائلة الى الاحمرار ، وعلى رؤوسهم طواق مستطيلة ، وقد
تخزّموا باحزمة قرمزية ، فراعني منظرهم لانهم كانوا يتحركون كخيالات
على حائط ، ويتقدمون بهدوء خفيف نحو سفن كانت راسية امامهم ، شاحب
لونها لا يحجب منظر الافق ، تشابه الهلال بحدة اسفلها ، على مقدمتها رأس
فرس ، وتنتهي مؤخرتها كذيل سمكة .

التفت الى الشاطيء فاذا به شاطيء بيروت ، ولكنه مختلف عما هو
عليه اليوم ، وقد بسطت على رماله الكشيفة آنية من خزف وزجاج ،
وجرار خمر وتماثيل واقشة لم اعدها في ايامنا هذه .

عدت على اعقابي مذعوراً ابحت عن منفذ المغارة فلم اجده ، وكان قد
تبدل المنظر كائني في حلم .

وفيا انا ار كض اصطدمت باحد البحارة فامسك بي ، وبدا عليه ان
منظري قد ادهشه ، فاحاط بنا جمع غفير وظهرت على الجميع علام
التساؤل ، فقلت لهم :

— لست انا بغريب . لم يبالوا بكلامي كأنهم لم يسمعو ، فخذوا
يتداولون بأمري بلهجة لم أتمكن معها ان اتبين معنى الكلمات .
وبعد لحظة كنت في اثنائها موضوع اهتمام الجميع يتأملون بشكلي
وثيابي ، دنا مني قائدهم فبدرت منه اشارة فهمت منها انه يأمرني بنقل رزمة
من السلع الى ظهر احدى السفن ، وكان رجاله يسرعون اليها لتجهيزها
واعدادها للسفر .

فامتثلت وتبعت البحارة وساعدتهم على نقل البضاعة وتركيب القلوع
الى ان اقترب موعد السفر . فآخذ زئير الرياح يتغلغل في القلوع ، وما ان
رفعت المراسي حتى شعرت برهبة خفية ، وادركت فوراً اني قد تسلقت
السنين والاجيال ، وانتقلت فجأة الى عصر مضى برقعة قوم زالوا من
الوجود ، وهم الآن في عداد الاموات .

اختلطت بالبحارة فجعلت اتبين كلامهم ، اخاطبهم بلغتهم المطوية في
ضمير الزمان ، لغة جماعة قطعوا البادية والجبال والاوادية . فوصلوا الى صيدون
وصور وجبيل ويروت ، واستأنفوا سيرهم على الامواج ، وشيدوا لآبناء
جلدتهم قصوراً بين السماء والماء ، بفضل المسافات التي كانوا يقطعونها والبلدان
التي كانوا يشيدون عليها المدن والمستودعات وقيمون عليها المعابد .

كانت رحلتنا طريفة حقاً ، مليئة بالعجائب والغرائب ، تدفع بنا من
البحر الابيض الى البحر الاسود ، ثم نعود فتتغلغل بين الجزر والصخور ،
ننقل الحديد والخشب والنحاس والطيوب .

كانت قافلتنا المؤلفة من سبع سفن تحت قيادة الربان عبد الملك الذي جعل يقدرني لما بدا مني من تدبير الامور ، ومن خبرة واسعة هي تراث الاجيال المتراكمة على الانسابية بعد زوال رفاقي ، فخفضت عليهم اسرارها فانسبوا ما انتهت اليه الى نبوغي .

ومن ثم ادخلني عبد الملك في خدمة نسيه الربان هباس وهو شاب في مقبل الامر يقود سفينة جديدة ، فسكفت باعائه وارشاده .

كان يلوح لي في اول ايام رحاتي ، ان عبد الملك هو ذلك البحري رفيق جدي وصاحب الكنز الدفين ، ثم زال عني هذا الوهم على ممر الايام . ومن غريب ما اذكره عن طريقتنا في الملاحة ، ذلك المزيغ ما بين التقليع والتجديف ، فكنا كلما هبت الريح نعد الى تشغيل القلوع ، وكلما همدت اعتمدنا سواعد المجذفين .

وكننا نقيس المسافات من مؤخرة جزيرة او ارض ، الى مقدمة سواها . فكان كلما اقترب منا دلفين يبدو منه حركة غريبة مضحكة تشابه دلال الطفل على اهله ، فنقذف له قطعاً من اللحم يلتهمها فيكافئنا على جميلنا بهدايتنا الى الطريق القويم ، حيث الموانئ الآمنة ، والمضايق الحالية من الاخطار . فكان يتوسط مجرى التيار ونتبعه بتصرف .

وبعد جولات عديدة تشابه دلال الدلفين في حركاته ، مكثنا مدة في الجزيرة العويصة من جزر الباليار حيث يعيش قوم من شعبنا اصلا ولغة ، ثم واصلنا طريقنا الى ايبيريا وقطعنا الغديرين في مضيق قدس

بين الجبلين فدخلنا في بحر الظلمات .

طوينا الجزر واقتربنا من الشواطىء الغربية حيث العبيد السود ،
فشاهدنا بلدانا فيها من اغرب الاقوام واوحشها .

فلوفد عبد الملك شرذمة من رجاله بقيادة صديقي هيماس فراقته
واستصحبنا بعض رجال يفهمون لغة القبائل ، وجاءنا رسول من ملك تلك
البقاع وهو الملك عبدون فاستقبلنا وامر رجاله بوضع الهدايا على الشاطىء
وهي قطع من العاج والماس ، فبسطنا بدورنا سلعا مختلفة من عقود الزجاج
البراق الملون والاقشة والاكواب ، ففرح السودان واختطفوها وهم
يرقصون ويهزجون .

ومن تبادل الهدايا نشأت قاعدة المفايضة وهي اول التجارة وسرها الازلي .
وفهم السودان مقصدنا ، فتولدت في ذهنهم فكرة التفاهم ، وكانت
اول معاهدة عقدوها .

دعينا لحضور القرايين في غابة كشيقة ادخلنا اليها بترتيب مرسوم منعاً
لتشابك الشعبين ، فجلسنا على الارض حول النار ، وذبحت لنا الذبائح
فتصاعدت رائحة اللحوم .

وظهر لنا ان هذه البقعة فيها من جميع انواع الطيور المختلفة الالوان ،
والاشكال والاصوات والافانيد . منها ما كان يصفر ، ومنها
ما كان يترغل ومنها ما كان يزغرد او يتكلم .

فاخذ السودان يرمون بشباكهم على الاشجار الواطئة ، فتمكث

الطيور في مكانها لا تستطيع الحراك . فنصطاد حية وتوضع في اقفاص
مصنوعة من اعواد النخيل وتقدم هدية اليها .

اثيرت حماسة رجال القبائل الذين جعلوا يرقصون امامنا ، فشاهدنا
الطبيعة على فطرتها مثلة فيهم ، وجوههم لامعة ، في عيونهم هيب ، على
اجسامهم قطع من النحاس والمعادن وزينة من الجمود والرياش : والاغصان
تتدلى منهم كاذيال الابل وهم يرقصون زرافات وقبائل فتبدو منهم قهقهة
طويلة متواصلة تحاكي اصوات العصافير .

وفيما نحن نتساور ونشرب من خمر النخيل ونأكل من لحوم الذبائح ،
هب فجأة هواء شديد عاصف ، فاذا بقطيع من النعام المفترسة تنهبط هذا
المكان ضاربة الجو باجنحتها . فصاح عبدون الملك :

- لا تتركو امكنسكم ، فرائحة الذبائح تحميها . عليكم بالطبول والرماح .

فلما حلت النعام في ساحة العيد ، اخذ العبيد يضربون طبولهم
ويدقون رماحهم على تروسهم . فتضعض شمل النعام واقتربت من اتون
النار ، فاحترق قسم منها وهلك القسم الآخر بسهام العبيد وعصيهم ، فاقتسمنا
ما سلم من ريشها ، ثم ودعنا الملك عبدون وعدنا الى السفن .

ابحرت السفينة ومقصدنا الابعاد الشمالية ، فلم نتوقف الى ان دخلنا
منطقة يسيطر عليها الضباب الكثيف الذي اخفى علينا نور الشمس ، وقد
احتجبت السماء بالسحاب فكان يصعب علينا ان نبين الطريق لان الجو كان
قد اختلط بالبخار .

وظهر لنا فجأة ان الدنيا قد زالت وان قرص السماء قد اتصل بخط
البحر اتصالاً مستحكماً ، كأن جميع اقفال الدنيا قد سدت بوجهنا لا يمر في
هذا المكان ولا مفر منه .

وعصف الهواء وانقطع عنا ذلك البور الخفيف الباهت ، وبات البحر
اسود كالليل ، فضاقت صدورنا وما برحنا نسمع ضجيج الامواج المتلاطمة ،
الى ان اعترض طريقنا غيم احمر رهيب شكاه كالانسان العالق في الهواء ،
فنفخ على سطح البحر الذي ازداد هياجه ، فارتفعت السفن ارتفاعاً مخيفاً
وتشتت هاربة .

وقيل لي ان نفخة واحدة محكمة من نفخات شبوح الغيم ، كانت كافية
لاغراق القافلة بكاملها .

ثم لاح نور الشمس فاخذ شبوح الغيم يذوب ذوبان الشمعة ، ثم تحول
الى مطر غزير يتساقط فهداً بيبه الموج الشاهق .

و كنا في اثناء هذه المحنة قد قطعنا مسافات طويلة لا تحصى فضلنا
الطريق وابتعدنا عن القافلة فصاح هياس :

- ان قوة شيطانية تبعدنا عن الطريق القويم ، وقد اصبحتنا لوحدنا .

فاجابه بحري قديم :

- المياه هنا مسجورة .

وقال آخر :

- هي جزيرة المعدن الخلاب . نجاتنا صعبة .

فانفتحت في جوف البحر فجوة كأنها ثغر الدنيا ، واستجلبت سفينتنا
تريد امتصاصها ، ثم تصاعدت السفينة لان ضغط الاعماق الهائلة دفعنا الى
اعلى . فلفظنا الموج المتصاعد الى سطح البحر ، ثم قذف بسفينتنا نحو
شاطيء الجزيرة التي كانت تلمع تحت اشعة الشمس . فبدت كذئبة رقطاء
تعتلي طبقات من المعادن الجاذبة التي قادت سفينتنا الى الهلاك . فاندفعت
على صخور الشاطئ وتخطمت وهلك جميع من فيها الا ثلاثة :
هيماس ، والبحري عبدو بسط وانا .

تسلقنا الصخور المرتفعة وصعدنا الى الجزيرة فتنشقنا هواءها المكبروت ،
ولمعت امامنا عين صغيرة ، اقترب هيماس ليشرب منها ، وما ان ذاقها حتى تحول
جسمه الى صخرة لا حراك فيها .

وقعت على الارض من هول هذا المشهد المؤثر ، فدفعني عبدو
بسط الى النهوض والالحاق به الى الشاطئ حيث جمعنا اخشابا مندثرة من
بقايا السفينة ، وصنعنا منها زورقاً ركبناه ، وما ان تقدمنا حتى اعادتنا قوة
الجذب فتحطم الزورق على الصخور .

عدنا وشردنا في الجزيرة نبحث عن اسرارها ونتعثر خيراتها . فاذا
باشجارها تلمع لمعان النحاس ، ومياها مريبة ومناظرها مشوهة لا اثر فيها
للحياة ، ولا سبيل للعيش . اما المعادن والاحجار الكريمة ، فكثيرة ، فيها
وفرة من الباقوت والعنبر والكهرباء والقصدير والحديد .

ما امر تلك الايام التي قضيناها ونحن نطوف كئيبين ، نعاني مرارة

الوحدة والخوف بعد أن نفد زادنا ، وقد ادر كنا الجوع والعطش . ثم نعود الى الشاطئ ، ننتظر بمزيد الصبر ، نصيدنا من الاسماك الهالكة التي تدفعها قوة الجذب على الصخور .

وكان يعلو البحر مرتفع صخري يتوسطه ثقب تخرج منه مياه تغلي وتبخر فتتكرر من سموم الجزيرة ومعادنها ، ثم تتحول الى نهر ينفذ وسط البحر . ثم تستجمع مياهه بشبه حوض يخلف لونه عن زرقة البحر .

كنا نشرب من هذه المياه ثم نصعد الى الصخرة ننظر الى الافق . لاحظ رفيقي ان قوة الجذب تتابع حركة دوران دائمة ترسم على وجه البحر خطوطاً عريضة متواصلة بشكل حلقات .

فعاودنا الامل واعدنا صنع الزورق واجرنا بين التيارات ، فابتعدنا فوراً حتى وصلنا بسرعة لا مثيل لها ، الى ملتقى المياه الحلوة بالملحة ، على حدود الحوض ، الا انه اتانا من خلفه تيار معاكس اعادنا الى الشاطئ بهدوء .

يئسنا لاول وهلة ثم كررنا المحاولة فادخلنا الزورق بعد جهد كبير في حلقة من حلقات التيار المبتعد ، فاذا بها تتسع وتبعدنا عن هذا الشاطئ اللعين ومن جوها المهجور ، فوصلنا الى عرض البحر .

وبعد ثلاثة ايام وثلاث ليال رهيبة ، وكان قد نقص منا كل زاد ، ظهرت على الاثر من جهة الغرب سفينة كبيرة ، وما ان اقتربنا منها حتى فقدت توازنها لقوة الجذب التي كانت تنبعث من المعادن الحلابية المجموعة في زورقنا فلاحت من ركابها التفاتة ، واقتربت السفينة من جهتنا فقرحنا كثيراً لانها

سفينة عبد الملك الربان .

فلما صعدنا الى السفينة هنأني عبد الملك بالسلامة فاخبرته عما
قاسيناه من احوال ، وعن ظروف وفاة هيماس فتأثر كثيراً وبكاه
بكاء مرأ .

فقلت له :

- انني شديد التأثر على فقدان هذا الصديق ، وقد آن لي ان اعود
الى الوطن .

فتردد قائلاً :

- اتريد ان اخسر صديقاً بعد فقدان نسبي وحيبي هيماس ؟ ابق
معنا وقد اصبحت منا .

فقاخته بامر اهلي وابناء جيلي . فقال :

- ليكن لك ما تريد .

فعادت السفينة على اعقابها نحو الجنوب ، وواصلت طريقها الى ان
تركننا بحر الظلمات ودخلنا البحر الابيض واتجهنا نحو الشرق .

فلما حان وقت الوصول من حيث اتينا ، دعاني عبد الملك فزودني
هدايا ثمينة من العاج وتراب الذهب واللؤلؤ ، وبدوري اهديت اليه شيئاً من
معادن الجزيرة وجواهرها فشكرني واوفد من يقودني الى الشاطي ، الذي
فيه ابتدأت رحلتي . فظهرت ثغرة المغارة ومنها دخلت في الدهليز ، الى ان
صعدت الى البستان ، فاعدت البلاطة الى مكانها على باب الثغرة .

كانت زوجتي تنتظرني في البيت بمزيد القلق . وفرح اولادي بعد
طول المغيب ، فبعثت ما كنت احمله من هدايا واصبحت من اهل الثراء .
اما روايتي فلم يصدقها احد مع اني لبقتها ولم يناقشني احد بما
ابديته من تفاصيل .



الرحلة الثانية

المعاكمات

مكثت في بيروت ردحاً من الزمن شعرت فيه بشوق خفي يعاودني عند ذكر الرحلة العجيبة التي كان الدهر قد دبرها لي على هذا الشكل اتساءل اهي وليدة التوهم او ضرب جديد من ضروب الواقع، واتردد الى الشاطئ لعلني اتوفق الى مشاهدة الميناء القديم ، فاعود خائباً الى البيت بعد تأمل طويل ، وصراع فكري اليم .

ولم يخطر ببالي ان اكشف على الدهليز ، وكأز القدر قد اطبق عليه البلاطة اطباقاً مستحكما .

- عالم الغيب ! ومن طرق بابه بدون وجل ؟ ان مفتاح المعجزات ليس بمتناول الناس .

صدر مني هذا الكلام بينما كنت جالساً على صخرة بعيدة عن رؤية الناس، انظر الى الهستان واشجاره، فاذا بالليمونة العنيدة قدماءت الى اليمين، كأن دافعاً غريباً قد ازاحها فاقتربت منها فوجدت ان البلاطة رفعت عن مكانها، فخفق قلبي ونزلت الدرجات وخطواتي بطيئة لان الارض كانت لم تزل رطبة موحلة بسبب مياه الشتاء المتسربة الى اعماقها، فاستأنفت سيرتي الى ان وصلت الى الغرف المسقوفة ثم الى قاعة البوم والوطاوط، فلاح اخيراً نور الشمس وتنفس الصعداء .

وعندما خرجت من منفذ المغارة كان المنظر قد تغير تماماً .

ظهر برج شامخ على مقربة من تربة الغرباء وامامه ساحة يمر فيها جنود يرتدون الدروع الحديدية وعلى رؤوسهم خوذة وبجرية معصمة يتأهبون لغزواتهم على مشهد من شعب كان يهتف للمرابطين ويذكر اسماء الامراء الميامين .

وفهمت ان القدر تقلني الى ايام فتوحات العرب وغزواتهم في البحر المتوسط ، وفيما انا غارق بافكار تصدى لي عملاق حاد النظر ، فامسك بردائي واستهجنه اذ قال :

- من الرجل يا ترى ؟

وحاوطني جمع من الاهالي يحدقون بي فاجبت :

- انا ابن ابي شريف الاثر ...

كأن مجرد ذكر كنيتي كاف لحل المشكلة .

قاطعني العملاق بقوله :

- مالي اراك تتلعم بكلامك وترتدي هذه الازياء الغريبة ، هل انت

من جنود الفرس او من الخوارج وهل اتيتنا منجداً او مخاصماً ؟

- كلا يا سيدي انا ابن بيروت ...

- اهل بيروت اذا دعوا للخير اجابوا ...

- نعم اريد الالتحاق بجيش مولانا القائد الظافر .

هي الحكمة التي اوحت الي هذه البادرة الاخيرة لان المفروض في

القائد ان تطلق عليه القاب الاحترام والتعظيم ، ويظهر ان هذا الاسلوب قد اغضب صاحبنا العملاق فصاح :

- يا لك من احمق ، ليس لنا من قائد ولا من يحزنون ، نحن جماعة السيدة العيصاء بنت ملحان ولم نقبل ولن نقبل عنها بديلا . كبلوه وقودوه الى اعماق السفينة .

فكبلني جماعة من البحرية واكرهوني على العمل بتجهيز السفن وتنظيفها ، ونقل مؤناتها الاسرى والعبيد . فكنت كلما احنيت ظهري استغيث من الالم واستجد الانبياء والاولياء ، فسمعتني احد الرجال فيما انا اردد اسم السيدة ام حرام رضي الله عنها ، فتعجب وبلغ الخبر الى العملاق فزارني وامر برفع الاغلال من رجلي وقال :

- كيف لا تعرف العيصاء وانت تذكر القابها ؟
فاجبته على الفور :

- مولاي السجنان ... وهل لي المام بالنسب الناس ؟

راقه هذا الكلام فافرج عني واتاني بشباب لا ثقة ارتدتها وادخاني في صفوف المقاتلين فاجرت معه على سفينة واحدة . وبعد ان مررنا بجملة موانئ وصلنا الى قبرص ثم الاسكندرية وبرقة وتونس فالجزائر ، فنزلت بدافع الفضول الى البر اتفقد العمارة والبساتين فضلت طريقاً واخذت استجد الناس فارشدوني الى الميناء فلم اعرفه .

ومن غريب ما طرأ علي ، ان الجيل كان قد تغير فجأة وان منظر المباني

وازياء الناس باتت مختلفة عما كانت عليه . ولما سألت من حولي عن السبجان
العملاق وعن المرابطين ، ضحكوا وهزأوا بي وقال لي بحري :
- وهل لك صلة بالاموات فتناجيهما ، ام اختلط عقلك ياسي شريف...
هيا بنا ... واثق الغماوي بالتظارك .

واشار الى سفينة جديدة ، لم اكن اعلمها من ذي قبل .
ما هو هذا السر الذي ادخلني الى طور جديد من اطوار القلب
بعيداً عن الاستقرار ، فوضعتي بخانة مهجورة مهملة من خانات الوجود ، كانت
قد خصصت لي فيما مر من الاجيال ، فاصبحت كمن عاش ثم مات ثم بعث
حياً ، وها انا بحري اصيل موطني المغرب احسن اللغات فاخاطب اهل
مالطة والبربر والزنوج والقبائل المتكلمة بالحركات ، وكنت لو اثنى
الغماوي الساعد الايمن .

واثق : ذلك المغامر الخطير الذي يحبب جميع البحار ولا يبالي
بالاخطار ، فيساهم بالتجارة حيناً وبالقرصنة احياناً .

اخذنا ننقل من جزيرة الى جزيرة ومن شاطئ الى شاطئ ، فقطعت
سفيتنا حدود البحر الابيض الى جبل طارق ، ودخلت بحر الظلمات باتجاه
الجنوب البعيد ، واذا بنو شديد عاصف يهدد السفينة ، فاخذ جميع من فيها
يجهدون على القلوع والمجاذيف . ياله من عمل شاق ! كنا نكد ونجد ونجاهد
والهواء يتصاعد ويعانده فهاج الموج وماج وارتفع ارتفاعاً شاهقاً . وبعد
ثلاثة ايام ضاع الامل فحوقل واثق وترجع ثم صاح :

- يا اخوان ، انني لن استطيع ابداً قيادة هذه السفينة .
فضاقت صدورنا وانقطع نفسنا لهول هذا الخبر ، وتحققنا من الموت المحتم !
فتقاذفتنا الامواج وانتزعت جميع القلوع والمجاذيف والصار .
و كنا في اثناء هذه المحنة قطعنا مسافات طويلة لا تحصى في جهات غير
معهودة ، فتحطمت السفينة على صخور ارض مجهولة فوجدتني مع من نجا من
رفاقي تنهأ على الشاطئ وقد اقبل الليل ، وما ان طلع النهار حتى حاوطنا
عدد غير قليل من الهنود اخذوا يرموننا بسهامهم فاهلكوا منا كثيرين
وهرب الباقون .

و كدت اهلك بدوري اولاً باز كبير هرب من يد احد الهنود
وحط على عمامتي ، ومد فيها مخالبه عندما حاولت ابعاده . فتوقف الهنود عن
مقاتلتنا وصاحوا بصوت واحد وعلامات السرور بادية على وجوههم :
- اهلاً بملك الجزيرة ! قم واحكم علينا بالعدل .

تركوا رفاقي وشأنهم يسرحون ويمرحون بين الصخور ، وقادوني الى
العمارة فوصلنا الى حديقة كبيرة فيها من جميع انواع الزهور والطيور ،
فاستقبلني كبير البراهمة ورحب بي بشيء من التكلف ، ثم ادخلني الى
القصر قائلاً :

- هي سنة عندنا معشر بني فلاذ حين يموت الملك ان يخلفه من يرشد
اليه هذا الباز الاليف سليل طيور البلاط ، فيرث الملك الجديد التاج والنساء
والاموال .

تسلطت زمام الحكم وقت بهام منصبي بمعاونة البرهمين استشيرهم
بجميع الشؤون ، الا انني اختلفت معهم لاسباب حسبتها لاول وهلة تافهة.
وهي اني لما عرضت علي نساء البلاط اخترت من بينهن الملكة ميراخت
لما في اسمها وشخصها من محاسن ومفاس . ولم اهتم ببقية النساء ويظهر ان
هذا التدبير مني قد اغضب اهل المطلقات واغلبهم ينتسب الى البرهمين
اصحاب النفوذ في الدولة .

فلما نشبت الحرب ما بين قوم بني فلاذ وقبيلة السماورة - المعروفة باسم
جماعة ما وراء الغابة - والخصام بين الشعبين يعود الى قديم العهود ، دعاني
كبير البراهمة الى خوض المعركة مع رجال الجيش ، فبكت الملكة
ميراخت وبكى علي رجال خاصتي واخذ خادمي الامين حامول يلطم
وجهه كأنه يندبني فسألته ما داؤك فقال :

- لم نعلم يا سيدي الملك ان مصيرك الموت المحتم ؟ فاذا تخلصت من
حيلة العدو ، ادركتك اشجار الغابة بجذورها الفتاكة التي تلتف على
الناس كالافاعي .

- ولكن انا لن اموت وحدي .

- ان ناموس الحرب يفرض على الملك ان يبادر بنفسه الى شق
طريق الغابة ، وقلما نجا من هذه التجربة احد من سلفائك الذين تعاقبوا
على الحكم وقد مات منهم ثلاثة في سنة واحدة .
- يا ويلاه ! لقد فهمت ، كل شيء .

ذهبت الى مقر البرهيمين فقلت، لهم :
- ولكن انا رجل غريب ، لو كنت عالماً بحقيقة الامر لكنت
رفضت هذا المنصب وما عرضت نفسي للتهلكة .

حدق بي كبير البراهمة والسم يتقاطر من وجهه وقال :
- يا ايها الرجل ، من يحل الباز على رأسه ويرفض زمام الحكم ، سيق
الى الغابة ورمي على مشهد من الشعب بين جذور الاشجار .
وتدخلت بالحديث الملكة ميراخت فغيرتني وذكرتني بشجاعة
سنانائي قائلة :

- من العار الا يموت الملك شهيداً .
فسلمت امري الى الله عز وجل ، وتقدمت على رأس الجيش وحولي
رجال الحرس يحملون المشاعل ، لان الليل كان قد اقبل فمشيت بخطوات ثابتة
نحو الغابة الكثيفة فانشد القوم هذا النشيد :

قل للغابة الكريمة

ما هو قوت القلوب

ما هو قوت القلوب ؟

قلب الملوک

قلب الملوک

ورأس الديوک

هذي احسن وليمة

ثم دنا مني كبير البراهمة فهنأني على هذه الميتة الصالحة التي استعد لها
وقال بكثير من الحبث :

— تقدم يا مليكن المفقدي ، اهدنا الى صراط الغابة آنين سالمين ،
آمين .

التفت الى الشعب فاذا بالرجال يقهقهون والنساء يهرولون ، ثم نظرت
امامي فلاحظت ان بعض الجنود قد اختبأوا في ظلمات الغابة استعداداً
للقضاء علي ليتمكن البرهميون من انهام اشجار الغابة .
فصحت :

— والآن ستعلمون كيف ساغدر بالغادرين واتغلب بارادتي على
الاقدار .

وتناولت قوسي فرميت سهامي على الغابة فتقطعت بعض الجذور .
صاح كبير البراهمة .

— ان ناموس الدولة يمنع عنك استعمال الحيلة على هذا الشكل .

— وهل ادخل الى الغابة وانا اعزل ؟

— لا بل خذ سيفك وامش !

دخلت الى الغابة متظاهراً بمقاتلة الجذور ضارباً بسيفي يمناً وشمالاً .
الا انني كنت احذر غدر الجنود . وفجأة تبادرت الى ذهني حيلة موفقة
فرفعت سيفي فوق رأسي وصحت :

— يا ايها الناس ، لقد اقترب اعداؤنا وهم يغدرون بهؤلاء الأبطال

الكامنين في مخابى الغابة ، يالها من مذبحه اليمه الحقوني !
فاسرع جميع الجنود بدافع الدهشة والمروءة دون ان يستثبتوا من
صحة كلامي ، فانتزعت مشعلاً من يد احد الحراس ، واضرمت النار في
الغابة فانتشر اللمب والتهم قسماً كبيراً منها ومن فيها من الجنود بينها
جسم كبير البراهمة وهو يحرق في ويتبرم غيظاً والماء ويصبح اقلوا هذا
المخادع . فما كان من القوم الا انهم اخذوا يصوبون علي اقواسهم فلم
اصب باذى .

اما انا فقد هربت وعدت الى البلاط من باب خفي ، كانت الملكة
ميراخت دلتي عليه فاتصلت بها واخبرتها عن كل شيء فاندعشت لبراعة
حيلتي وودعتني وداعاً مؤثراً بعد ان زودتني بالقوت والزاد والمال ، وارشدتني
الى طريق آمنة تؤدي الى الشاطيء . وفيما انا هارب قبض علي بعض الهنود
فادر كت ان ساعتي قد دنت .

فصاح احدهم :

- هذا ملك سوء ، فاقتلوه .

واستعد لقتلي فهاهم عن عمله احد رفاقه فقال :

- انا اعرفه وهو من ابناء قومنا .

التفت الى المتكلم فاذا هو عبدالله الاقليمي احد رجال واثق الغماوي ،
فعانقته عناقاً طويلاً وفهمت منه انه كان قد لجأ ورفاقه الهاريين الى

جهة ما وراء الغابة ، فحلوا ضيوفاً عند السامرة الذين احسنوا معاملتهم .

فلما عرفوا بقصتي تعجبوا كثيراً ، وبعد ان زودونا المال والحملى
والحجار الكريمة اعادونا الى المغرب على سفينة من سفن الحضارمة فوصلنا
آمنين . فودعت رفاقي وعدت وحدي الى بيروت وتمت هذه الرحلة
كالمسابقة ، فرحبت بي زوجتي ، ولكنني لم اخبرها عن تفاصيل رحلتي .

الرحلة الثالثة

الغرام المفقود

بعد ربح من الزمن قضيته بين الاهل والاصدقاء ، كنت فيه اذوق حياة هادئة بعيدة عن الهموم . شعرت بالضجر يملكني كلما كنت اصطدم بفضول الناس ، فهم يريدون استثماري شأن كل مواطن عائد من السفر . فكنت كلما انفقت عليهم لا اجازي الا بنكران الجميل . واخيراً آثرت ضياع اموالي على موائد الميسر ، فبعد ان كنت مغامراً أصبحت مقامراً . وكنت كلما خسرت مالا ، اشعر بثورة نفسية على ضعفي ، لانني كنت اتذكر ما عانيته من المشقات ، فضاق صدري يوماً وازداد شوقي الى الابعاد ، ففأثحت اهلي بما يخالج نفسي من الخواطر فقالوا :

- الم تكثف بما خصك الله تعالى به من النعم ؟
- لن اسافر هذه المرة لكسب المال بل لشفاء الغليل .
- الم تأخذ ايضاً نصيبك من المغامرات ؟

وعند منتصف الليل فتحت باب الدهليز ودخلته ، فتقدمت بداخله الى ان اقبلت على الشاطئ المعهود .

فاذا بعدد من الصيادين يهيمون للذهاب الى عرض البحر في احدى جولاتهم الليلية ، وقد اوقدوا مشاعلهم لاغراء الاسماك فقلت لهم :

- لا تتركوني وحدي على الشاطئ ، انني سأساعدكم بدون اجر .
وتركوني اصعد الى مركبهم الصغير ، فجلست في مؤخرته انظر الى
حركاتهم وانا جلي النجوم . ثم طلع نو شديد زاد في سرعة المركب الذي
كان يجرفه التيار ، فاخفت الارض فجأة فقال احد الصيادين :
- لقد ضللتنا الطريق .

واخذ جميع من في المركب يكد عاملاً بالمجاديف للعودة الى البر ،
فكانت الامواج تقذفنا يمينا وشمالا فنعود الى مكاننا ، ثم دفعتنا موجة
بقوة هائلة ، فتحطم المركب على صخرة ، فمات الجميع ما عداي وواحد
من الصيادين .

صعدنا الى الشاطئ الغريب وظهرت امامنا بعض النساء كن يتكلمن
لغة مجهولة ، ويرتدين نسيجاً من ورق الغار .

فاخذن يعملن لنا اشارات التودد والتشجيع ، فهرب رفيقي وكان
قد اختلط عقله فضاعت آثاره .

دعيتي احدي النساء لاتبعها فلجحت بها يائساً مضطرباً ، فابعدتني عن
رفيقاتها الماكثات على الشاطئ ينتظرن بهدوء نصيبهن مما ستلفظه الامواج .
فاقتربت مني المرأة ونفخت في وجهي نفثات عطرية استعدت بها
انفاسي كأنني استفتت من ذهول عميق ، فاخذت احقق بالامرأة اتأمل
شعرها البني المائل الى الاحمرار الذي كان ينبعث منه بريق يحاكي لمعان
النور ، واطرح عليها جملة اسئلة فلم تجب عنها ، بل ناولتني ثمرة غريبة شبيهة

بالحرمة ، ما ان ذقت طعمها حتى نبذتها ، ثم شعرت بنشاط كبير واخذت
اثنين كلام رفيقي فسألتها :

- ما هي هذه الثمرة ؟

قالت :

- الملا بليس .

ثم همست همساً كأنها تريد مداعبي :

- اسمي قراء

وعزفت على عود هوائي اخذت الحانه الذهبية تتطاير وتتناثر ، فتحبك
خيوط أهواء ، جعلتني في حالة من الغيوبة ،

فوصلنا الى كوخ صغير دخلناه فانطرحت على الارض ونمت نوماً
عميقاً كانت تراودني فيه احلام كثيرة تدور جميعها على تطورات القمر
واوصافه زداد نوره ضياء كلما اقتربت مني امرأة شعرها مسترسل ، ثم
تختفي فجأة ثم تظهر الطبيعة مقمرة ترد اشعة الشمس باشعة فضية ، فلما
استيقظت من نومي ، كانت قراء واقفة امامي وكانت قد جهزت مائدة مليئة
بثمار الملا بليس لكنها مختلفة الاشكال والروائح ، فقالت :

- ان جميع هذه الثمار من اصل واحد ولكنها مختلفة الحجم والنكهة
مع اختلاف الزمان الذي فيه تم قطعها ، ومهما قدم عهدا مهما طابت ،
يمكنك بفضلها ادراك سر الماضي والحاضر ... اما المستقبل فليس بمتناول
الناس .

ترددت عن اكل الثمار وهي تراودني على اكلها ، وفي هذه الاثناء
دخل علينا شيخ وقور طويل القامة ذو لحية بيضاء ، وصاح بنبرة وهو
يلتفت الى قراء ثم يشير الي :

- ويحك يا احمق ، اياك واكل تلك الثمار فهي مسحورة ، من يكثر
من اكلها يدركه الجنون ، ويتعرض للهلاك العاجل .
ضحكت قراء قائلة :

-- ايموت هذا الفتى من اكلها وقد استعاد نشاطه بمجرد انه ذاق
طعمها ؟

فدهش الشيخ وقال :

- هل ذقت طعمها حقيقة ؟ يا لها من شريحة خائنة ! لقد جعلتك
تتعلق بالجزيرة الى الابد ، وستصبح اسير حبها اللعين .
فغضبت قراء وقالت :

- يالك من شيخ حسود . الانك حرمتها اراك تندم تلك الثمار
وانت اعلم من غيرك بمحاسنها ، والآن تصوم صيام المنبوذين .

ودار بينهما جدال شبيه بالمحاورة الغرامية ثم صاح الشيخ :

- اتبعني يا ابني وانظر الى شجرة الملائيس فنظرها يبعث الرهبة
في النفوس .

فشعرت بقوة سرية تدفعني نحوه ، بالرغم من صياح قراء فلحقته بنا ،
وقادني الشيخ الى مرتفع صغير فيه شجرة كثيفة اوراقها تبدو كقلب

الانسان، لون خشبها احمر كأن الدم يسيل في جذورها، ولها ازهار عريضة
شائكة لونها صارخ . كلما حلت فيها حشرة او حط عليها طائر، اطبقت عليه
اطرافها ومضغته حياً فتحمر وتنبعث منها رائحة ذكية .
- هذه شجرة الملايلس .

وكانت ثمار الشجرة قليلة معدودة لكنها جذابة خضراء مائلة الى
الاصفرار . قطف الشيخ واحدة منها فسالت من الشجرة مادة بيضاء تشبه
الحليب ، وحلت ثمرة جديدة محلها .

فالتفت الى قراء وعلامات التساؤل بادية على وجهي .

فهربت وبقيت مع الشيخ فقال :

- ليس في الجزيرة ما يؤكل سواها .

فنظرت الى الطيور العديدة واخذت ابتعد وتبغني الشيخ ، وكما
حاولت خطف طائر او رميه بحجر ، طارت جميع الطيور دفعة واحدة .

استدرجني الشيخ بضعة اميال على هذه الصورة ، وما ان وصلنا الى
محلة مهجورة ، حتى اخذ شكله يتغير وقامته تستطيل ، فبات عملاقاً فظيع
الشكل ، انقض علي ضرباً ، ثم رفسني ورماني على الارض ، وهوى علي
يريد امتصاص دمي . فاظلمت السماء في عيني وصحت :

- يا قراء

وهنا شعرت بنسيم عليل كأنه نفحات ثغر عذب ، واذا بانفاس قراء
. تعيد الي انفاسي وما احتاجه من القوة ، واذا بيدها الناعمة تدس في يدي

خنجرًا ، فاتهى غني العملاق وحاول الإمساك بقمرء ، فحالت دون غايته
قامته الطويلة ، وما هي الا لحظة حتى ضربته بالخنجر على شرايين رجله
اليسرى ، فسقط على الارض وعاد فجأة الى صورته الاولى ، فقلب
شيخاً ضعيف البنية . اما عيناه فما زالتا تبعثان شرارة الحقد والغيط فقال :

- قف عن ضربتي قليلا ... كنت شابا مثلك . وقعت في غرامها
فأصبحت الآن شيخاً كئيهاً ، لانها اخذت من حيويتي ، وما برحت هي
صبية ، مع ان عدد سنواتها لا يمكن احصاؤه

لم ابال بكلامه بل هجمت عليه وقتلته فقالت قمرء

- مسكين قليل الحسد !

ثم دنت مني وفي ملامحها مزيج من العطف والاعجاب ، وعيناها
تدمعان ، فاخذت تعانني باوراق الشجر والنبات ، وعرضت علي ثمارها
فاقشعر بدني ، وجعلت اركض في البراري فلم اجد فيها الا نباتات شكها
غريب ، تبعث رائحة كريهة ، فعدت الى الكوخ جائعاً . قالت قمرء :

- جميع نباتات الجزيرة مسمومة ما عدا شجرة الملايلس

فسكنت وسكت طويلاً وأملت في ثم قالت :

- عندي سر ابوح به اليك ، حقاً ان هذه الثمار مسحورة ، تجعل
آكلها يعلق بالجزيرة تعلقاً جنونياً . فلا يفارقها ويقع في غرامي وهو غرام
لا يمحي آثاره الا الموت .

فصحت :

- ويلاه ! لقد كان اذن هذا شيخ على صواب ... وانت ساحرة
دجالة ... وهل يكون مصري كمصير هذا الشيخ ؟
قاطعتني قائلة ؛

- كلا يا حبيبي ، انه جاء الى تلك الجزيرة فـكاد يموت جوعاً ، ثم
اكل من تلك الثمار واكلت انا منها ، فوقع بغرامي ووقعت بغرامه ،
وعندما ابتداء يقبل على الهرم كغيره من بني الانسان ، كرهني وحاول
الفتك بجمالي ، لانه كان يغظه بقائي على ما انا عليه من الصبا والصحة ،
لان الحورية من طبيعتها الا تتغير وهي تأكل من قوت الخلود . فتركته
وشأنه شريداً في الجزيرة ، وانبث فيها اعشابا تؤمن تغذيته ، حقاً انه كان
ينسکر جميلي في كل شيء .

- ألم يكن في قلبك درهم من العطف ؟
- كيف لا ، وانا التي خلصتك من غدر هذا الشرير .
ثم زادت :

لولا خبث هذا الرجل ، لكنت حافظت عليه كهلاً وشيخاً بعد ان
احببته شاباً . اما انت فسلم قلبك ، انت جميل الصورة والشيم ، وسأبحث
لك عن جميع الحيل لحفظك على صورتك الحالية ، والا لحقت بك الى
الموت ، لانني تعب من ذلك الخلود الذي ليس له من منتهى .
اخذ كلامها العذب يندس في صميم احشائي مع شعور خفي من
الخوف المزوج بالذدة ، فاكلت من الثمرة ثم مرتين ، وامتسلاً قلبي

سروراً وغراماً ، وضمت قمرأ الى صدري ، فاكلت بدورها من الثمار
وارتمت بين ذراعي ، وهي تضحك وتبكي من فرحها .

وعدنا الى الكوخ ، فعشنا حياة هنيئة ، بينما هينمة النسيم تبعث انعاماً
وتموجات كأننا في رياض الخلود ، غير ان ما كانت عليه طبعتي البشرية ،
دعني للشك والذعر وخشونة الكلام ، وعشيقتي الازلية تلين خاطري ،
وتستعطفني برقة فائقة .

و كنت اطوف وحدي في جميع انحاء الجزيرة ، اتفحص عن مصير
رفاقي من البحارة ، فلم اجد واحداً منهم ، ولم اتوفق بواحدة من النساء
الماكثات على الشاطئ ، فاعود الى الكوخ حزينا ، فاذا بقمرأ تنتظرني
بفارغ الصبر .

وهب يوماً هواء شديد عاصف ، فدنت مني قمرأ مذعورة قلقة
وخاطبتي :

- لقد دقت ساعة الفراق يا حبيبي ، وسأغيب عنك وتتخلص مني .
عانقتها عناقاً طويلاً ولم افهم لاول وهلة معنى كلامها .

- والى اين ترحلين ؟.. وكيف تغيبين عن الجزيرة وهي مقرك الدائم

- نخضع ايضاً نحن معشر الحوريات ، الى شرعة خاصة بنا ، فكلما

تعلقنا بالنسي تعلقاً صادقاً واخلصنا له ، تعرضنا لعاقبة الفراق ، او اصابنا ما

اصابني من هذا الشيخ اللئيم الناكر الجميل ، فحرمت علينا لذة الغرام الصحيح ،

وعاقبتي معك ستكون الهجر الطويل والذكريات التي لا تمحى ، يا لها

من عاقبة الأيمة .

كنت معك كالعبدة المطيعة ، فغضب علي جماعة من السجرة ،
وطلبوا من الاقدار ابعادي عنك ، فلا تنساني .

فلما انتهت من كلامها المؤثر ، استغرقت قراء في نوم عميق ، وشعرت
بدوري ، ان ثقلاً كبيراً يغمض جفوني ، فارتميت على الارض .

عندما استيقظت في الصباح ، كانت قراء قد توارت عن انظاري .

خرجت من الكوخ اطوف الجزيرة باحثاً عنها ، فعاد ذلك الهواء
الشديد العاصف واخذ يقتلع الاشجار والنبات ، وينشر روائعها المسمومة
في جميع الجهات ، وافتلع الكوخ الصغير وقذف باجزائه ، فلاحقت بها حتى
وصلت الى الشاطئ ، فاذا ببعضها قد حملت على سطح البحر ، فعندما هدا
الهواء ، اخذت اجمع اجزاء الكوخ وبقايا مراكب محطمة ، فصنعت منها
زورقاً صغيراً دخلته ، بعد ان زودت ثمار المالبليس ثمار شجرة الحب
والحيوية التي لا تنقطع .

ونمت طويلاً في الزورق الذي اخذ التيار يدفعه بعيداً ، وفي اثناء
نومي ، عاودتني ذكريات اقامتي في الجزيرة ، فلم تتركسني حتى استيقظت ،
فاذا بشاطئ بيروت مائل امامي ، وقد تغير منظره علي بعد حلم جميل ،
لم يزل مطبوعاً في صميم القوادم ، علامة الشوق واليأس .

الرحلة الرابعة

بدر الأساطير

عدت من تلك الرحلة ، في قلبي خفقان وشوق حتمي ، الا ان
التضرع لم يكف لابعاد ما كنت اشعر به من ألم ونقص في كياني البشري .
اخذت الاحلام العذبة تجذبني ، واحتلقت في عقلي افكار واهداف
متباينة تتجاذب وتمجاذب فتبرز في مخيلتي الاوهام .

كنت في كل مرة اعود من رحلتي متزوداً بمجوهرات ودنانير . وها
انا اعود وفي قلبي مرض وفي حياتي فراغ كبير .
ما اشد تأثير الحب في قلب الانسان ؟

ذلك الحب الازلي الذي تولد في علي اثر التقائي بقمراء ، قد انقلب
سوياً باتت سليقة متأصلة ، وكنت كلما امر بالمدينة انظر الى الفتيات
نظرات قلقه ، لهلي ان اجد فيهن شيئاً بقمراء ، قراء ذات الوجه الذي اعاد
الي الامل وفطوة الشباب .

- قراء ؟ قراء !

كرهت زوجتي واولادي كأنهم غرباء يبعدون عني ذكر الحبيب .
كيف يكون لي طاقة على تحمل عبء الحياة ، وفي نفسي ذلك الفراغ
الاليم ، وهذا القلق بمصير عشيقتي ،

- نعم ماذا حل بقمراء !

أهني في قيد الخلود تتمتع ببؤس لا يزول ، ام اصبحت في عداد ابناء
البشر ذوي الحياة المرهونة بالموت ، فتخفي على الاصدقاء في الحالتين .
ماذا رماني بها ، وماذا دفعني عنها ، وقد وافق كياني كيانها ، كجزئي
فاكهة الملائيس ، ألم تكن هي قسمتي منذ اول الوجود ، أحورية
كانت ام امرأة من لحم ودم ، في اي جيل من اجيال الوجود ، في اي قارة
من قارات الارض ، وفي اي بقعة اتوفق برؤيتها ولو لحظة واحدة ؟

وضاقت نفسي من تجلط الافكار واضطرابها ،

- انت في ذمة الغيب يا قراء والحاجز بيننا سر الوجود ،

صادفت فتاة بطريقي ، فخيل الي انها قراء ، فتواتر غن انطاري
دون ادنى التفاتة . ثم عدت الى نفسي فادركت مبلغ الخطأ ، اين ذلك
الشعر البني المائل الى الاحمرار ، والعينان الشبيه نورهما بقوس القزح ،
وتلك البشرة التي انبثقت نضارتها من امواج الاثير .

حنين الى قراء ، فحنين الى السفر ، الا ان حب السفر لم يكن الدافع
الحقيقي في هذه المرة .

اتخذت حيلة مرض الجسم ، وانا مريض النفس ، اتطلب معالجة
اطول واساليب اكثر دقة ، فلم اتعب جهدي كثيراً لاقتناع اهلي واصدقائي ،
لان احداً منهم لم يحاول ردي عن انفاذ مشيئتي لكثرة ما شاهدوه في من
فقدان التوازن ، وبسرعة لا مثيل لها دبرت اموري واتممت استعدادي ،
فدخلت في الدهايز ووصلت الى المنفذ ، وظهر نور الشمس المحرقة على

مشهد من أدهش المشاهد ، فإذا بركب شراعى محل بأهوى الازهار ،
وباغصان النخيل وجميع وسائل الزينة ، وقد ركب فيه لفيف من الفتيان
والفتيات المطوقة رؤوسهم بالكايل الغار ، يرددون البسة حريية ومعاطف
ارجوانية ويعزفون على العود وينفخون في المزامير فتعجبوا كثيراً عند
رؤيتي ، لكنهم تابعوا نشيدهم بشيء من الحذر ، فتشجعت وصعدت الى
المركب . وجلست على مقربة من العازفين ، فظهروا استياءهم مني ومن
تطفلي عليهم ، فعادوا الى الشاطيء وتركوني وشأني في المركب ، فدخلوا
الى مخيمات منصوبة في مرتفع صغير ، وتابعوا عزفهم . وما هي الا دقيقة
حتى اقلع المركب فجأة ، وشق الامواج . فاحاط بي رهط من الاسماك
ذات الوجوه البشرية ، واخذت تدفع بالمركب كأنها تلعب ، فتتقاذفه
الايدي ، فلم اخش على نفسي لان حركة السير كانت طبيعية ولا تنذر
بالخطر .

وصلت الى ارض جرداء مغمورة بالرمال كأنها الصحراء بعينها ،
فأسرعت وزلت الى الشاطيء هاربا من شياطين البحر .

شردت مسافة طويلة ابحت عن ماء اشربه ، او قوت اقتات به ، فلم
أتمكن من التوفيق حتى بمنظر جديد ، الرمال تلي الرمال بلا حسد ، حتى
ضاق جفني عن احتمال النور الساطع بشدة يموه كل شيء ، وهمت بالعودة
الى المركب وشياطينه لعلني ان اتخلص من تلك الارض اللعينة التي كتب
لها الحذب والجفاف ، ولم اتقدم بعض الخطوات ، حتى اصطدمت بالمركب

شاخصاً امامي وشراعه منصوبة تحفك في الهواء ، دنوت منه فابتعد
تبعته في عمق البحر ، لكنني لم اغرق لان المياه تحولت الى رمال .

عدت على اعقابي ، فوصلت الى ساحل لم اكن لاشاهده عند نزولي الى
الجزيرة ، فيه من جميع الوان الخضرة ، فاكلت منها وشربت من مياه عين
صافية صفاء بين الديك ، فاستعدت قواي ، وتابعت سيري الى ان وقع
نظري على تلة متوسطة ، كان قد شيد على احد جوانبها درجات من
الرخام الابيض فتمعدتها ، ولما وصلت الى القمة ، بدا هيكل ذو اعمدة
طويلة على مقربة من قصر منيع ، جدرانه من البلور الابيض يمكن مشاهدة
ما في داخله . تلعب الشمس عليه فيتكرر المنظر على الواجهات الاربع .

واذا بمدخل هذا القصر يفتح امامي تحت صخرة من حجر الصوان ،
فدخلت الى ممر ضيق متعرج بين غرف عديدة متعاقبة ابوابها بسكل لولبي ،
جدرانها متشابكة كزوايا على محور . فجعلت اسير يمينا وشمالا نزولا
وصعودا ، دون ان اتمكن من ادراك اي هدف معين ، ففقدت حاسة
المكان والزمان .

فبعد ان تهت بهذا الممر وغرفة العجبية ، حاولت التعلق بعلامة اقيس
عليها الوقت والمسافة ، فلم اجد سوى بعض الخوابي والجرار الفارغة
مطرحة على الارض ، وكنت اصطدم بها في نهاية كل جولة مرجولاتي .
ثم نهضت الى نافذة تطل على شبه منور فاذا بها تنفذ على سطح يؤدي الى
الجدران البلورية .

فدفعني الفضول ، فتجرات وتقدمت ، ويا له من مشهد مهيب !
ان جميع من في القصر ، اشباح يرتدون ازياء بيضاء كالأكفان ، وما
ان اقتربت حتى تبين كل شيء . كان في وسط قاعة كبيرة عرش ذهبي
جلت عليه امرأة جميلة طويلة ، عيناها مطفئتان ، وكان يطوف حولها
عشرات من الرجال في طواف متواصل لا ينتهي اجله ، يواظبون على
الحركة الواحدة كعقارب الساعة ، لا يقفون ولا يستريحون ولا يتلفظون
بكلمة ، بيدهم شموع يرفعونها ويصوبونها نحو المرأة ذات العينين
المقفلتين ، وهي جالسة مكانها كأنها ميت يندبونه بهمس .

راعني هذا المنظر الشاذ ، ولم افهم له معنى ، فسترت وجهي بكففي
لا استطيع طاقته ، وهممت بالهرب فوجدتني فوراً على المدخل ، الا انه
اعترضني رهط من ادهش الحيوانات والمسوخ ، استترجت فيها جميع
الاشكال المعروفة

كان اربعة انسان له رأس ذئب وجسم شيطان ، الا انه مكبل بالحديد ،
اخذ يصيح غيظاً وغضباً ، فلحقني شيخ له جسم غزال ، وكان يضرب
الارض بشدة مهدداً ، وفي نظراته الساذجة مركب من الخوف والوعيد ،
ثم تركني وشأني وتواري ، فلاحظت ان غيرها من الحيوانات الدابة
والمسوخ والغيلان والوحوش المنحطة والعنقاء تطاردني ايضاً وتطوف
بقربي كأنها آلات او اصنام متحركة . وكانت تنبت من تحت الارض
افاع وطيور وحشرات من جميع الانواع ، لكنهم لم يمسني بأذى . كل ما

يدركه العقل البشري من اشكال مبهمه ، وكل ما يمكن ان يتصوره الخيال
المرىض ، كان مجموعاً في تلك الجزيرة العجاء .

ثم توارت جميع هذه الحيوانات وعادت الى التلة ، الا واحداً هو
ابو الهول . ان عذوبة وجهه الانساني كانت لتزيد من روعة حيوانيته ومن
قوة بطشه ، اخذت اغالطه في سيره ، اذهب يمينا ثم شمالا ، الى ان قصرت
فتمكن من ادراكه بخطواته الطويلة ، فرماني تحت اقدامه يريد الفتك
بي ، فصحت صيحة ألم وذعر :

- آه ! ما هذا المصير ، وهل اموت ضحية الخرافات والاساطير !
فما كان من ابي الهول الا انه انحنى على الارض فبات .
وسمعت صوتاً خفياً يهمس :
- لقد قتلته بصوتك !

- ...

- هذا ابر الهول غذاؤه السكوت ، فما ادراكك بسرره ؟ انه عدو كل
متكلم . تؤذيه الجمل والتعابير .

فقرحت فرحاً شديداً

انها قراء شاخصة امامي ترشدني عند وقوعي في الملمات .
- يا قراء ان صوتك اعاد الي الحياة وشفى جروحي ، وما هو سر
هذه الارض ؟

- هذه بلاد الاساطير .

- ومن هي هذه المرأة الجلّسة على عرشها في القصر؟ وما هي هذه الخيالات الطائفة بدون انقطاع؟

- ان ملكة الجزيرة عمياء، يخشى عليها ان تفقد صوابها. فاذا ادر كما النوم في النهار، هلك جميع الاهالي، لانها اساس كل حركة فيهم، بعد ان بات جميع الاساطير منبوذة مهملة. فلذلك تراهم يطوفون بالشموع المشعلة لابقائها على يقظتها حتى هبوط الليل، فجميع هؤلاء مرهونة حياتهم بيقظة هذه الضريبة يستمدون منها البقاء والخلود، فاصبحت اجسامهم على كثرة الطواف هزيلة كالاشباح.

- ولماذا لحقت بي هذه الحيوانات والمسوخ؟

- لان كل رجل حي يعكر صفاء الجو ويخل بنظام الجزيرة، الا ان تطفله يقضي عليه، لان الاساطير تدافع عن كيانها في آخر بؤرة لها على وجه الارض.

- والاخيلة والاوهام والاحلام لذهبية ليست آمنة ودیعة كالفسكر؟

- اترك هذه الجزيرة، فان الاخيلة لا يجدر بك ان تقتنصها، والاساطير لا يجوز ان تجلبها وجهاً لوجه. لقد ماتت الاساطير ضحية الاجيال. وتأثيرها لم يزل مطبوعاً في النفوس. فاهرب اذن وتزود ما شاهدته من شذوذ، فمناجاة الاخيلة تدعو الى التخبط والجنون وفقدان الحيوة.

- وانت يا قمرء . ألسن بخيال ؟ انت ايضاً مرهونة بالحياة
الوهمية . رافقيني الى عالم الاحياء الذين يعملون ثم يموتون فتطيب الارض
بزاد اعمالهم -

وهنا انفتحت الارض فتصاعد دخان كثيف ، فاذا بتنين تلمع عيناه ،
يحافظ على باب مغارة . فما ان وقع بصره علي حتى هداً ووضع رأسه بين
ذراعيه وثام . فدخلت قمرء الى المغارة وتوارت عن انظاري . واحتفى كل
اثر للمشهد فلم ار الا رمالا .

واستمطرت السماء جواهر كثيرة من اللازورد والياقوت
والماس . ابت نفسي الا ان تمتد يدي اليها ثم لما مستها اصبحت شيئاً من
لا شيء .

- اهكذا تكون الرموز يا قمرء ؟

ولما عدت الى الشاطئ ، كان المركب في مكانه تتقاذفه الاتواج
فادخلت فيه نماذج من حجار ورمال الجزيرة الخداعة فيسكن كلما رميت
شيئاً منها في البحر . وصلت الى ميناء جديد من موانئ اساطير الاقدمين
صخورها ساحرة ومياهها مبهجة . فانذرت اهاليها بزوال سيطرتهم في عصرنا
هكذا ، ونظمت قصائد ومقاطع زجلية لتخليد اسم قمرء ، وحفظ تفاصيل
رحلاتي السابقة ، فاستحسنها الناس وبالقوا بتكريمي . وظهر فجأة موكب
من مواكب الشمس ينبيء بتهاية رحلتي

فلما وصلت الى موطني بيروت، كان قد فرغ زادي من الرمال
والاحجار والاخيلة . فدخلت الى الواقع المنظور ، الا ان فراغاً في قلبي
كان ينبئني بثقل الدنيا علي بما خصني به القدر من حظ في حياكة خيوط
الاثير ، وكأبة كامنة لا تمحوها مظاهر الثراء واسباب النعمة .



الرحلة الخامسة

جزيرة الاعمال

ان جو الاحلام يولد حركة دائمة في الانسان ، منه طرافة المسلك ،
والغرابية والشذوذ .

لا ادري ماذا حل بي فاختلط عقلي قليلاً ، وبت مائلاً الى المرح
اضحك بدون سبب . واتعلق بالنادر من الامور . اتردد الى المقاهي
والخانات ، عالمياً باصول الخمرة ومستلزماتها ، فاستأجر اجواق المطربين
لترطيب مزاجي ، فعاقر الخمرة فتسمع لي قهقهة طويلة متواصلة ، ويرد
عني اصدقائي الجدد كالسكارى والحشاشين ، ونقرع الكأس بالكأس ،
فكنت مغرماً بجو من السرور المصطنع يشابه البكاء ، ثم اعود الى افكاري
وذكرياتي ، وكلما حاولت النسيان عاودتني صور الماضي القريب .
كنت يوماً بضيافة رجل من اهالي المحلة وامام المائدة المليئة بالطيبات ،
لم اتردد عن رفع كأسي لاشرب نخبه ، فقلت :
- اشرب كأس ...

وعندما حاولت ذكر اسمه ، خالتي ذاكرتي فجأة ، فانفجر كلامي
كالصاعقة وصحت :

- نعم اشرب كأس قراء ؟

يا لها من كبوة مهينة دهش لها الحاضرون ، فسألوني بين المرح والجد :

- من هي يا ترى قراء هذه التي تذكرها . اهي معشوقة تسيطر
على عقلك بحيث لا تتمكن من ضبط كلامك ؟ فتسيء الى صاحب الدار
بدلاً من تكريمه ؟

ضحك البعض وحافظ الباقون على الصمت الالذع ، اما صاحب
الدار فقد اصفر وجهه واحمرت عينه فأخذ يعبس بوجهي
كيف اخرج من هذا المأزق ؟

وهنا قلت بشيء من اللياقة السطحية لم اكن اعهد لها بي من قبل :
- ليست قمرء بشخص معين . بل هي لقب يدل على المناسبة الحلوة
التي جمعتنا في هذه الليلة المقمرة ، بفضل صاحب هذه الدعوة . فلا نها
جمعت صنفوف الاحباب فضلت قمرء هذه على الف ليلة يسيطر عليها ظلام
النفوس .

وهنا تنفس اصدقائي الصعداء لان الازمة كانت قد انقرجت . الا
انهم ظلوا على سابق اعتقادهم بانني فقدت صوابي .
وذاع صيتي في البلد .

- انه مجنون ليلى ... مجنون معشوقته قمرء .
وصل الخبر الى اهلي وابناء اسرتي فعاتبوني على اعمالي . وبدوري
شكوت ثرثرة الناس .

دخات ذات ليلة غرقتي وانا مثل فقراة في جريدة : ان سفينة محملة
بضائع قد غرقت في عرض البحر ، فقلت بقرارة نفسي :

- وانا ايضاً غريق ... انا الغريق الذي عساه الشاعر ولا اخشى
من البلل .

لفظ البحر اجزاء السفينة على الشاطئ ، فذهبت مع الكثيرين
لمشاهدة هذا المنظر ، فتأملت فيه واحترت بامره ، فتساءلت هل بامكاني
رؤية تلك البقايا اذا عدت للشاطئ من منفذ المغارة ، فاسرعت الى الدهليز
وبعد ان قطعت المسافة المعهودة تحت الارض نفذت الى الشاطئ ، فاذا
بالسفينة الغريقة قد استعادت كيانها ماثلة امامي مكتملة الاجزاء ناصعه
البياض، ترفرف قلاعها المزدانة بالليارق تحت نور الشمس. يرتدي بحارها
ثيابا انيقة بيضاء. فتعجبت كثيراً .

واخذ احد البحارة يتبين ملاحي فصاح بشيء من الدهشة :

- هذا انت يا سنداس اصعد الى السفينة عاجلاً لا تتأخر . كلهم
بانتظارك لقد طال غيابك عن جزيرتنا .

لم افهم معنى هذا الكلام . ولكن دافعاً سرياً دفعني الى الصعود الى
السفينة ، فنادى رفيقي ربان السفينة ، وأشار الي بالبنان . فاقرب الرئيس
مذهولاً وقال :

- تأكد من صحة معلوماتك يا سهيل هل صادفته قبل هذه المرة ؟

- نعم يا سيدي الرئيس . هذا هو الرجل الذي تبحثون عنه

والتفت الي وسألني :

- الست انت سنداس ؟

فأجبتة :

- ومن يكون سنداس ؟

فأجاب البحري :

- هو انت ، أتفكر نفسك ؟

وصاح بعض الركاب :

- سنداس ، نعم هذا سنداس المطرب .

واستطرد سهيل قائلاً :

- والآن اذكره تماماً ، ان اخي هو حارس في بلاط الملك ، فزرتة

يوم عيد الاميرة زريقة « وكان سنداس هذا يعزف على العود في الحديقة الكبيرة .

وفهمت من حديث الناس ان الاميرة زريقة بنت الملك ، وقعت بحب سنداس وان هذا المطرب القى بنفسه في البحر ، ومات غريقاً . فحزنت الاميرة حزناً شديداً على موته ، واصابها مرض عضال عجزت عن معالجته الاطباء ، الى ان حضر كبير السحرة الى البلاط وقال للملك :

- لم يزل سنداس ب قيد الحياة ، لان بعض الصيادين خلصوه من الامواج وتركوه على شاطئ ميناء غريب ، فلن يتم شفاء الاميرة الا بعودته . وكان ان اوفد الملك هذه البعثة للعثور على سنداس .

امسكت بالربان وقلت له :

- تحقق ان سنداس هذا بات في عالم الاموات لانني لست اياه .

وهنا غضب الربان وقال :

ما هذا المجون يا مطرب الملوك ، أنا مجري بسيط ، ولكن لن اقبل
عن كرامتي بديلاً ، أتهزأ بي والاميرة مريضة بسببك ؟
فسكتت وقالت بنفسها :

- عسى ان تظهر الحقيقة عند وصولنا الى البر .

وعندها اكرمني جميع من في السفينة ، فوضعوني باحسن مكان
وخصصوني باشهى طعام ، فلما وصلنا الى جزيرةهم بعد ان قطعنا الغديرين
ودخلنا الى بحر الظلمات ، راغني منظرها لأن البحر كان قد غمر اطرافها
ففرقت وخسفت تحت الامواج ، ولم يبرز منها سوى قمة هائلة كفوهة
البركان غنية بالاسوار والختادق كبيروت القديمة ، يوجد على واجهاتها
العديدة درجات للنزول الى مشاهد العمران الغارقة تحت سطح البحر .
فزادت هذه الاوضاع الطبيعية من مهارة اهل الجزيرة ، فعدوا من
الاعماق الى الاعالي قصوراً وقلاعاً شاهقة وارجاءً مكلفة بفنارات ساطعة
النور ، تمكن بفضلها اهالي الجزيرة من السيطرة على منطقة بعيدة ،
فيفرضون على السفن المارة بها الغرامات الجسيمة ، ويتعاطون الصيد
والقرصنة واستخراج الملح .

كانت الجزيرة محاطة بمحاجز حصينة وشبه مرتفعات صخرية تنفذ الى
ميناء مدخله ضيق .

وكان يتوسط العمارة هيكل شاهق ذو اعمدة تنطح السماء كأنها تريد

مساندتها ، يتصاعد منه دخان ينبىء عن آتون من نار موقدة دائمة .
وما ان اقبلت على البر وزلت الدرجات ، حتى تحققت من شبهي
الغريب بالمطرب سداس لأن الشعب هتف لي هتافاً طويلاً ، واخذت
النسوة ينثرن الازهار تحت اقدامي ، الحق انه شعب عجيب يشابه حيوانات
البحر بعيونه المعصمة من كثرة نظره الى الآفاق البعيدة . وجلده المذبغ
لكثرة استنشاقه الهواء المالح .

كان الملك بانتظاري على ابواب القصر ، وبرفقته الاميرة زريقة
لأن مجرد قدومي كان كافياً لارجاعها الى تمام الصحة
دخلنا القاعة الكبيرة وهي كناية عن مغارة واسعة ذات اعمدة
مصنوعة من الصوان ومكلمة بعقود من المرجان ، وقد هالني منظر التماثيل
العظيمة التي تمثل الاسماك الضخمة والفيلة وحبابة الازمنة الغابرة .
ان في جوانب المغارة اقفاصاً فيها من جميع انواع طيور البحر
وخيوها وثيرانها ، واحواضاً من صخر وزجاج عرض فيها من مختلف انواع
الاسماك التي يمكن صيدها في المنطقة .

وقد اشعلت مشاعل مزكزة على اعمدة طويلة اخذت نيرانها تلعب
كالاشباح فتغالب ظلمات المغارة .

اجلسني الملك بقربه . وجلست الاميرة زريقة على يمينه ، واحاط بنا
الوزير راتب وابنته ثريا ، وكبار القوم .
قال لي الملك :

- نحن بغاية الشوق. اهلاً وسهلاً بقدومك في الجزيرة، لقد طال غياب
الطرب عندنا، اعزف على العود واطر بنا يا مطرب.

فقرحت الاميرة زريقة والتفتت الى الحضور. فاذا بهم ينتظرون
العزف وعلى وجوههم علامات الامل والسرور.

ناولني احد رجال الحاشية عوداً، فاخذت اعزف. بعض المقاطع التي
كنت حفظتها في اثناء ليالي الساهرة، ثم انشدتها فاعجب بها الحضور
واظهروا استحسانهم، وكادت الاميرة ترقص لشدة انفعالها.

الا اني كنت استهجن صوتها الحسن وحركاتها الجذابة التي لا توافق
مزاجي، فكنت كلما ظهر منها علامة استحسان، انفر منها. وعندما انتهت
من عزفي وانشادي، قال الملك:

- ما هذا يا سنداس، لقد ازداد عزفك تفكناً وشعوراً، من اين لك
هذا التحصيل؟

وبدت منه ضحكة صفراء وشيء من الوعيد يعاكس كلامه المعسول،
فخشيت شراً خفياً، وحدثتني نفسي بأن ابوح بالحقيقة فقلت:

- يا ملك الزمان، لست انا بسنداس انما شبه غريب بيننا قد حمل
رجال البعثة على الاعتقاد بانني هو، لكنني غريب عن هذه الجزيرة.

ورويت له قصتي من اولها الى آخرها. فاحتج علي الربان وغضب
الملك، ثم كتم حقه ورفع الجلسة وانصرف الجمهور. وذهبت الاميرة.
فلم يبق سوى الملك ورجال الحاشية. فحدق بي الملك وقال:

- لولا رأي كبير السحرة ، لكنت امرت بقطع رأسك يا لعين ،
قال كيف نجوت من البحار ؟
ثم امر بجلدي عشر جلدات .

ومنذ ذلك النهار المشؤوم ، اخذ الملك يدعوني في كل يوم الى العزف
على العود امام الناس ثم يأمر بجلدي خارج حضورهم ، لعله يتوفى بارهاق
قواي والقضاء علي تدريجياً ، حتى يتيأ للاميرة ان موتي كان طبيعياً ،
وهددني بالقتل اذا شكوت امري لأحد .

فادركت حينئذ سر عداوة الملك الذي كان قد امر باهلاك سنداس
غرقاً ، وقد بوغت بنجر نجاته ، فأمر باعادته الى الجزيرة لتأمين شفاء
الاميرة ، فلما استعادت صحتها عاودته فكرة الانتقام .

وصل خبر تلك المعاملة السيئة الى ثريا بنت الوزير راتب وهي فتاة
على غاية من الجمال ورقة الشعور ، فاشفقت علي وقالت لوالدها :

- ان هذا الرجل مظلوم فهو ليس بسنداس انما كان ضحية شبهه الكبير
بالمطرب الغريق . وليس من العدل ان يعاقب لذنوبه سواه .

ثم ارسلت بعض رجال حاشية والدها ، فخطفوني ليلاً ، بينما كنت
اعود الى بيتي تحت مراقبة رجال الحرس ، ونقلوني الى بيت بعيد يخص
احد اقارب الوزير .

كانت ثريا تأتيني كل صباح تضمد جروحي وتعني بي اعتناء دقيقاً .
جاءت يوماً فقالت لي ان بإمكانها مساعدتي على الهرب من الجزيرة ،

فشكرتها على جميلها ، وطلبت مني ان اعزف امامها على العود . فامسثلت ،
وما ان بدأت بالعزف حتى دمعت عينها وقالت :

- مسكين انت ، لا تستحق الضرب الا بالإنعام .

فلما شاع بالخزيرة خبر اختفائي ، اشتد مرض الاميرة زريقة ، فوعد
الملك بجائزة قدرها الف دينار ، لسكر من يعثر على المطرب سنداس
ويأتي به حياً .

فلما فاتحتني ثريا بهذا الموضوع ، شعرت بخوف شديد ورجوتها بأن
تقوم بوعدها ، فتسرع بمساعدتي على الرحيل . فقالت :

- اذا افشى احد سر وجودك في هذا المكان ، ضحيت بنفسي في
سبيلك .

وهنا تحقق لي انني انتقلت من ورطة الى ورطة ، لأن ثريا ابتدأت
تتعلق بي وتنفر مني كلما فاتحتها بامر الهرب ، الى انها حضرت يوماً
فقالت لي :

- ماتت الاميرة زريقة فجئ والدتها . ودعا كبار القوم والذي لادارة
شؤون المملكة لحين شفاء الملك ، والآن يمكننا ان نعقد زواجنا .
فقلت لها :

- كيف نعرض حياتنا وحياة والدك لخطر محقق ، اذا شفى الملك
من جنونه ، فيقضي علينا نحن الثلاثة .

فلما نقلت ثريا هذا الكلام الى والدتها ، وافق عليه لانه كان يخشى

غضب الملك .

ولكن ثريا حقدت علي ، فكانت تأمر رجالها بضربي احياناً ،
وتستعطفني احياناً وليس من يسمع شكواي من هذه المعاملة .

واتفق ان سهيلاً وهو البحري الذي كان سبب و جودي في هذه
الجزيرة ، قد تأكد من خطاه وندم على ما بدا منه . وقد فهم الكثير من
سيرتي واحوالي في بيت ثريا ، فاتفق مع بعض رجالها وقادوني الى الميناء ،
وسلموني الى ربان مركب صغير ، وبعد ان وهبني سهيل كيساً يحتوي مئة
دينار ، تعويضاً لي ، ودعت الجزيرة وما عاينته فيها من مشقات فاجرح
المركب ، وتبعتنا قافلة كبيرة من السفن كانت ثريا ارسلتها في طلبي ، الا انه
هب اعصار شديد فتشتت ، وتمكن ربان المركب من الابتعاد ، واخيراً
وصلنا الى شاطئ بيروت ، وعندها ودعت رفاقي ، فعادوا الى بلادهم
ودخلت المغارة وانا اقول :

- من جزيرة الاعماق صعدت . ومن الاغوار تخلصت ، فخلاصي

عجب عجاب .

الرحلة السادسة

بيروت القديمة

ان نجاتي من الالهوال جعلتني اترث في جميع الامور ، فأخذت في تمحيص الحقائق استشير الحكماء والعلماء والمنجمين مطالعاً كتب السحر . ولكن بدون ان اتوفق الى حل رموز تلك الرحلات العجيبة التي احدثت في حياتي ذلك الانقلاب الكلي ، فاذعنت للأمر الواقع أتردد الى مقهى البحرين الواقع على شاطئ بيروت بمحلة مجاورة لمقبرة السنطية وهو مقهى مبني على اعمدة واوتاد مغروزة في الماء .

فبينما كنت جالساً فيه يوماً ، اتأمل الامواج المتلاطمة ، سمعت هذه العبارة تفوه بها احد الحاضرين :

- ثورة الانسان على مصيره كثورة هذه الامواج المتصاعدة ، تكبر ثم تهمد ،

فالتفت الى صاحب الحديث فاذا به رجل مسن ، قيل لي انه موظف قديم خدم تحت ظل الحكم العثماني ، له خبرة واسعة بشؤون الدنيا والدين ، فتعرفت اليه وطلبت مجالسته فملت صداقته معتبراً ساعات الاجتماع به ، من ساعات العمر .

كنت كلما اقبلت في الصباح اجد بهجت افندي جالساً يتصفح الجرائد ، ثم يتحدث الى احد زبن المقهى ، فاذا لمحي بانته على وجهه

ابتسامة حلوة ، فاجلس بقربه نتباحث بأهم المعضلات فتحفني بأخبار الماضي
البعيد وبذكرياته عن تقاليد الباب العالي .

ومن رواياته المؤثرة ، قصة رجل قضى في السجن اعز سني حياته ،
فلما انتهى العهد الحميدي اطلق سراحه فمات لساعته ، لأنه كان قد آلف
سوء المعاملة .

واستطرد بهجت افندي قائلاً :

- ان خلاصه من المحن كان كافياً للقضاء عليه ، فليس لأحد ان
يعرف ما يصلح له او يضره .

فاجبته على الفور :

- من اصاب بمصير شاذ كن تعود الشذوذ في تفكيره ومسلكه ،
فيرى نفسه غريباً في بلده .

- نعم يا شريف ، ان هذا الرجل يتمسك بمصيره لأنه مرهون بما
تفرضه عليه الطبيعة ، وبما تكيفه له التجارب ولاقدار ، ومن كان مصيره
حركة دائمة لا يهدأ له بال في سكون المدينة .

سكون المدينة ! وهل يحلولي سكون المدينة ! انطبق كلام بهجت
افندي على ما كان يخالج نفسي من خواطر ، فعدت الى بيتي مسرعاً ثم
تغللت في الدهليز المعهود ، ولما نفذت على الشاطئ لم اشاهد فيه احداً .
وكانت الرمال مكوّمة كالرماد بعد حلول كارثة ،

سمعت انيناً في عرض البحر كصوت غريق يستغيث ، فاذا بزورق

صغير يرقص على الامواج ، لكنه خال من المخلوقات . وما ان تسلقته حتى
اقلع بي مسرعاً ، فظهرت منارة بيروت ومحتها برمالها وصخورها
ومرتفعاتها ، كما تبدو اليوم وهي اول مرة اشاهدها برحلة من رحلاتي ،
وبالرغم من ان نظري كان قد ألفها ، بانث كمشهد جديد ، وعند
مروري على مقربة من الصخرة الطويلة المعروفة بالروشة تجاه مغارة البوم ،
تهياً لي انها جل يحمل حملاً من الاعشاب والحشائش ، واستهجن ذلك
المسافة الفاصلة ما بين شوران والاوزاعي ، فقد اختفى كل اثر للأرض
فجأة ، ووجدتني بين السماء والماء ، ثم هدأ الهواء العاصف وبطء سير
الزورق ، فاجتذبه تيار قوي واستسلمت الى النوم .

ولما استفتت كان البحر حولي اسود كالليل ، فيه وفرة من الجزر
الصخرية اعتبرتها لا أول وهلة وليدة تفكيري المضطرب ومخيلتي المريضة ،
شكلها كحيوانات محجرة جامدة في مكانها ، كانها قطع من روثة بيروت قد
اندثرت على سطح البحر . ثم نميت وكبرت بعد ان احتفظت بهيكلها
الرهيب وحشائشها البرية ، وعددها خمسون جزيرة منها ما يشابه الحوت
وبعضها يشابه الفيل . واخرى كرؤوس الثيران ، ومنها كالضبع والذئب
والكلب والتمساح والضفادع والسلاحف .

وكان بعضها كالبيوت المهتمة الخالية من الارواح ، وبقرها اعمدة
وقناطر محطمة وهياكل منحنية غارقة رؤوسها في البحر . واسواق واسوار
غائرة ، فتأثرت لهذا المشهد المنبئ بالدمار .

وكانت تمر بين الصخور مخلوقات غريبة تصعد من غور البحر شبيهة
بالحيوانات الساحلية، لكنها مجنحة كالاسماك والكلاب البحرية.

واذا بي امر في وسط الجزيرة بين ضفتي شاطئ صخري، في شبه
قناة تجر المياه من البحر جراً. كأنها منفذ هواء، كانت على ضفتي القناة
ازهار ضخمة الحجم، كأوراق الصبار فيها شوك ووبر.

ثم دفع التيار بالزورق الى خارج الصخور، فبات ارض ساحلية
جرداء تغتليها قلعة مرتفعة على جوانبها ستة ابراج صخرية مليئة بالاشكال
الرابعة.

فصعدت الى الشاطئ، وفيما انا اتقدم، سمعت هدير نهر في بطن
الارض، لكنه غير منظور، تفقدت مصبه فاذا به يمتد على مسافة طويلة،
الى ان تختفي آثاره تماماً

وصلت الى منحدر ينتهي الى تلة مستديرة فيها مجموعة من الاشجار
المتحركة تتجه اتجاهات مختلفة، فتعلو وتنحني وتدور يمينا وشمالا.

عدت على اعقابي مذعوراً، فوصلت الى القلعة ولقت نظري بابها
الكبير وعليه آثار للدخان الاسود. كانت تتسرب من تحته النيران الملتبئة
بينما كانت تصعد ضجة الحديد يقرع بعضه بعضاً.

تأهبت لطرق هذا الباب. لعلني ان اتوفق بايجاد من يرشدني ويهديني
سواء السيل.

فاستوقفتني يد عرفت صاحبها قبل ان ألمح وجهها. واذا بقمرء ماثلة

مامي تبعدني عن هذا الباب قائلة: كيف تأتي الى ههنا وانت
ما تزال على قيد الحياة؟ ألا ترى الى اين يؤدي هذا الباب؟
واشارت بيدها الى جسر بعد ملاصق بالسور الخلفي المحيط بالقلعة
فقالت:

- هناك دنيا الغيب وسلطة اليوم الآخر.

نظرت الى الجسر فراغني منظره، وتعجبت لألوانه البراقة كأنها
قوس القزح.

قبضت على يد قراء قبضة قوية، وتبعتها، وفيما نحن نتعد سألها:
- هل انت أيضاً في عداد الاحياء؟ أراك تركت جزيرتك لتسكني
في هذه البلاد التي لم اشاهد فيها أثراً للحياة!

- هذه هي منطقة لحرام ما بين الحياة والموت. اما انا وأسفاه لم ازل
في قيد حياتي المملة الخالدة اسيرة ذكرياتي. فلما علمت بقدمك، جئت
مسرعة لانقاذك من حيلة الزمان عليك.
ثم اخذت ترتجف قائلة:

- ياله من مشهد رهيب! قوافل الاحياء يقتادون الى متوهم الاخير،
فينقلبون ارواحاً حائرة تستعد لمواجهة ربها.

التفت يمناً وشمالاً فلم ارَ احداً، وتبينت زجاجات من البلور تحتوي
على قليل من النور الشاحب، فأشارت قراء الى الجسر البراق، وقذبات
كالشمس الغاربة وعليه ظلال ضئيلة، وتعجبت كيف اني ابقى على حالتي

الاولى فسألتها :

- وهل انا ايضاً استعد للموت في هذا المكان ؟

- كلا !

- وكيف يكون الموت ؟

- مزيج من الحركة والراحة واليقظة الكلية ،

- هذا شأنا نحن الاحياء ، فما يميزنا اذن عن الاموات ؟

- نور الشمس وفصول القمر ، وفضول الناس علينا .

ثم قالت :

- عليك الآن مغادرة هذا المكان قبل ان يدركك عزرائيل

ويسوقك الى قضاة يوم الحشر ... اراك ساهماً حائراً ، ماذاؤك ؟

فأجبت :

- انني حائر بامر هذه الاشجار . ان فيها ما يستوجب الايضاح .

فأجابت :

- ألا ترى اننا نتقدم على الطريق المؤدية اليها .

وفعللاً كنا على مقربة من مجرى النهر . غير ان الحديث كان يلهيني عن

سماع هديره . وصلنا الى المنحدر وبانت التلة المستديرة ، فقالت قراء :

- انظر الى تلة القدر ! اقترب منها لا تخف وابحث عن مصيرك .

فأقتربت من الاشجار ، فاذا بها قليلة ، الا انني عجزت عن عدها

واحصائها .

فقلت قراء وهي تشير الى شجرة مائلة امامي كالخادم المطيع :
- ألا ترى شجرتك ؟

اخذت ادور حولها اتفحص وأعد اوراقها ضارباً الخماسي بإسداسي .
على قول العامة عندنا ، فكانت تحضرنى جميع القواعد الحسائية ، ثم تغيب
عني فجأة فتعكس النتائج والحلول ، وتتعدد المسائل والخطوط والخواص ،
واخطأت بعملياتي بدون انقطاع فصرخت :
- ما هذا يا قراء ؟...

ابتسمت ابتسامة يائسة ، فلاحظت ان هذه الاوراق كانت تتحول
من الاخضرار الى الاحمرار ، الى الاصفرار ، لا يستقر لونها على حال .
ناهيك بشكلها وحركاتها .
وهنا قادتني قراء الى خارج هذه الدائرة المسحورة .
قالت ؛

- لقد شاهدت مصيرك بأم عينك ، هل فهمت عنه شيئاً . هي سنة
الاتسان ان يكون ابدأ في حيرة وريبة من امره ، انني اراك لا تعلم
ما اصابك من قسمة الحياة ! أمغلوب انت على امرك ام مسيطر على
التقدير ، فالحياة مساومة لا ينتهي معها الاخذ والرد ، الا بالختام
وهو الموت .

والآن لنفترق . لأن وقتي محدود هنا .

- رحماك ، ان اذهب انا والى اين تعودين انت يا قراء دائمة خالدة

جسماً وروحاً ، ومن تكونين يا ترى ، ومن اين اتيتني زائرة وعشيقة
لتعذبيني ، وما هو سر التقائنا على هذا الشكل ؟ فالحياة بدونك خالية من
معنى ، وانت عالمة بما انا عليه من بؤس وفاقه .

وامسكت بثوبها اريد تقييلها . فابتعدت وهي تبكي وقالت :
- ألم ادخل في حياتك الامل والخيال والرسالة ... ستراني في
احلامك مراراً ، اما منظري فمحجوب عنك نهائياً ، لأن اسراعي
لانتقاذك من هذا المكان ، كان محسوباً علينا ، فاضعت خرفصة تركتها
لنا التقادير . وها قد انتهى اجل الميعاد فعد سالماً الى بلادك .

ورفعت بوجهها الى السماء ، وتوارى معها منظر منطقة الحرام .
لقد تركتني على الشاطئ وحيداً اعزل رهين الدهول واليأس ،
فصرخت صرخة ألم وبكيت على نفسي ، متبعاً الطريق المؤدية الى عالم
الاحياء . فتسلقت الزورق وانتهى الرحيل الى حيث كان ينتهي في كل مرة .

الرحلة السابعة

الخلود

شعرت بأحباط في جسمي ، وبقنوط في عيشي . لأن خاتمة اختباراتي
تكلت بالخيبة واليأس ، فكنت أتأوه وانتحب ثم اعود فاطارد ذكرياتي
الائيمة ، واعالج نفسي العليلة ، بأعمال البر والاحسان .

فسمع باخبارى اهل المحلة ولم يصدقوا ما بدا علي من تغيير نفسياني ،
غير انهم لم يظفروا مني بأي جواب .

دخل علي يوماً أحد الدراويش الغرباء عن بلادنا ، شديد الشبه بـ كبير
البراهمة المسيطر على جزيرة المعاكسات . فاستقبلته واجلسته الى قربي ،
فاخذ يردد علي الاسئلة :

- أراك قد طفت بلدانا كثيرة واختلطت بشعوب الارض كافة ،
وشاهدت من الامور ما كان علينا خفيا .

حرت بمعنى هذه الكلمات التي لم تكن لتخطر على بال احد من
الناس سواه .

ثم زاد الدراويش :

- وهل خالطت الارواح ؟

فقاطعه :

- ما هذا الفضول علي ؟

فاجاب على الفور :

— ألم تكن رحلاتك ستاً ؟ لماذا لا تجعلها سبعاً ؟

— ولماذا يا ايها الرجل ؟

— لماذا ؟ ولماذا لا تتم السلسلة الكاملة لرحلاتك ، وهل تريد ان يكون مصيرك شاذاً حتى تحذف الرحلة السابعة من سجل الزمان ؟

انصرف الدرويش هازئاً ، وهو يحدق بي بعينه اللامعتين ، فأثر علي كلامه وقات في قرارة نفسي :

— عسى الا يكون طراً شيء على الدهليز .

تفقدته فاذا بالبلاطة ثابتة بمكانها . رفعتها شبه مكره وتغللت في الدهليز الى ان وصلت الشاطئ ، فوجدت غلاماً على غاية من الجمال ، كان يهيم ليصعد مصطبة خشبية منبسطة على سطح البحر فصحت به :

— هل اصابك بله ، كيف يمكن ان تقودك هذه الخشبة الى عرض البحار ؟

فنظر الي نظرة طويلة رصينة واجابي :

— وكيف تقدم انت على الاتصال بعالم الغيب مدفوعاً بقوة ايمانك بما هو خفي غير منظور .

وتوارى الغلام وبقيت المصطبة في مكانها . فوضعت رجلي عليها لا عادت الى الشاطئ ، وما ان وطأتها حتى ذهبت على الامواج بسرعة ، هادئة كالمركب الشراعي عندما يكون الهواء طفيفاً .

لاحظت ان المصطبة تمضي نحو الشمال حيناً ونحو الجنوب حيناً ، غير
ان المشهد كان يتغير شيئاً فشيئاً ، كأنني انتقل من مرحلة الى مرحلة من
تطور الحياة .

وجعلت تلك الحركة الخفية تستقر هادئة تشابه وقفة التفكير
العميق عندما يتناول موضوعاً من مواضيع الخلود .
وهو احساس كنتأثير البنوج لم أتمكن معه من ابداء اية مقاومة .
غابت الشمس . وسيطر الظلام ، وأغمضت عيني ، وسلمت امري الى
الله تعالى .

ولما استيقظت كانت المصطبة منجذبة الى داخل مضيق صخري
مستوف بصخور جبلية ، بشكل جسر طبيعي مستطيل ، يجر مياه البحر
جراً كأنه منفذ هواء .

واذا بفجوة كبيرة في اعماق البحر ، تبدو كبئر مستديرة تدور على
محور واحد .

فسقطت المصطبة في الفجوة تدور على مستوى واحد ، فاستقرت
بشكل استوائي . وكلما دارت دورتها دخلت الى محل اعماق .

ثم انقطع عن ناظري ما حولي من مشاهد ، وانفتحت فوهة في
البحر واتسع الغور كأنه بئر عميقة .

خرجت المصطبة بين الصخور ، واندفعت في نهر عريض ، ومع ان
الظلام كان لم يزل مسيطراً علي ، كنت اسمع زقزقة العصافير واصوات

جميع الحيوانات ، وكنت اتبين اثر نور اسود كالليل لا يغالب سطوة
الظلام ، بل كان يؤلني لمعانه العميق فاطرفت يائساً ورحت في سبات عميق
وبعد وقت دام كأنه جيل استفتت فلفت نظري نور ساطع لم أتمكن
من مجابهته لاول وهلة ، فصرت افتح عيني واعمضهما ، فاذا بمكان يشع منه
هذا النور العنبري تتوسطه الرياض الغناء ، ويغلب فيه لون الزهر وخضرة
الغابات وبريق الذهب ولمعان اوراق الزيتون . وكان هذا المكان يبدو
كالملس والبلور ، يمكن للناظر ان يرى في خلاله الوجود ، جميلاً خلايا ،
وكان المنظر ينعكس في بحيرة واسعة كأن مياهها تتحرك وتتجدد كمياه
المطاحن ، وقد انبعث من هذا المكان نسيم اختلط فيه عير ذكي ، فتنشقت
رائحة الزعفران والعنبر ، والمسك والعطور ، والثمار والازهار ، وشذا
يوشي الغبطة والسرور ، فتسلط الطيب علي .

واذا بعرصات تؤدي الى جسر ينفذ الى باب عظيم على مقربة من
عين فياضة ، فتراجعت بعض الخطوات .

فوجدتني بمكان اشبه شيء بالفردوس الارضي ، فيه جميع الحيوانات
وديدة آمنة ، الفهد يرعى مع الغزلان وتطير البلابل برفقة النسور ، فوق
قم الاشجار التي يتساقط منها الماء الزلال .

شاهدت على منحدر في خلوة من خلوات هذا المكان ، التفاحة
المعهودة ، لكنها ذابلة وبقربها تينة جرداء جامدة الاغصان .

اما شجرة الحياة ، فقد بلغت نصيباً وافراً من البهجة والنور ، بقربها

ملاك يحرسها ، بيده سيف من نار ، فيما رآني حتى قال :
- ما هذا ؟ أتعود الى هنا يا ابن آدم ، وقد طردت بعد ان ظلمت
نفسك ، اليس لا أمثالك في الارض مستقر ومتاع الى حين ؟
واعترضني ملاك آخر قال :

- كيف دخلت الى هنا ، فاذا كنت من الاموات فجنة الخلود بعيدة ،
واذا كنت من الاحياء . فهذا المسكان قد حرم على امثالك ، تريد ان
تستقدم ساعتك . ام ضاقت بك الدنيا حتى تعديت حدود الارض ؟
علق لساني بحلقي وعجزت عن الجواب .
واتاني ملاك ثالث وقال :

-- اتانا هذا المخلوق الغريب عن طريق نهر القرات . وما ان دخل
حتى شعرت بالشر يتغلغل في هذا المقر الطاهر ،
ثم التفت الي وسألني :
- ألسنت انت طيناً مصوراً ؟

واخذ يطاردني بعنف ويهددني بلهيب سيفه ، فلجأت الى بؤرة خالية
من الكائنات شردت فيها حتى وصلت الى جسر عظيم قطعته ، فبلغت باباً
صخرياً كبيراً يؤدي الى غابة كثيفة تحتوي شجر الخور والسرو تحيط
بتلال ومرتفعات تعلوها نماذج من جميع المعابد التي شيدت في الارض ،
على ممر السنين والايال في جميع الاقطار والبلدان ، من هياكل وكنائس
ومساجد ومعابد ومصالي وخلوات ، وقد انتشرت في الهواء رائحة البخور

والصندل والتريدين .

وتصاعدت اصوات المصلين من جميع المذاهب ، وفي جميع لغات المعمور فصليت قائلاً :

- ايها الرب الاله العليم بحالتنا ، وبما نحن عليه من بؤس وفاقه ، لم يبق لنا الا هذا الملجأ ، فنضرع اليك يا ارحم الراحمين ، انظر الينا بعين رؤفتك ، واهدنا الصراط المستقيم . ربنا اتم لنا نورنا واغفر لنا ، فانت على كل شيء قدير .

فاذا بالملك المطارد يظهر امامي فجأة ، فقلت له :

- اريد ان اموت هنا في هذا المقر .

فأجاب وقد بدا في صوته شيء من الهدوء والعطف :

- ليس لأي انسان ان يستقدم ساعته ، ألم تعلم ان لكل امة واكل شخص اجلاً لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

- دعني استمع الى اصوات المصلين .

، - ما هذه الاصوات الخالدة ، الا اصداء الصلوات المتصاعدة بكل زمان وفي كل مكان ، وذكري ما استجلبته من فضل وغفران ، على الانسانية البائسة ، فهي لن تنقطع ، وانظر كيف تناثرت حوالينا نجوم السماء فطمست نور الشمس والقمر .

قال هذا وقادني الى ملتقى ثلاثة انهر وارشدني الى الطريق ، فاذا بالظلام يهبط فجأة ، ثم نمت نوماً طويلاً . ولما استيقظت ، وجدتني على

شاطيء بلد غريب فيه جمع غفير من الحجاج العائدين الى بيروت ؛ فأخذوني معهم واعدوني الى الوطن ، وكنتم سري على الجميع .

حمدت الله على ما خصني به من مشاهد ، عدت على اثرها خبيراً بامور الدنيا وشؤون الغيب ، فقد ادركت بالحس ما خفي على غيري من الناس بالعلم والاستقراء .

كنت اسجد مع الساجدين ، واصلي مع المصلين ، لا ابالي بمتاع الدنيا ومباهجها ، استرحم رب العالمين ، لأن لا ملجأ منه الا اليه .

وكنتم لا ادري ، كيف اعامل الناس ، وهم يسلكون الطرق المألوفة ، بطوفون حول مصيرهم كالا صنم المتجركة ، يحملون احمالهم من المتاع كالسندباد الحمال ، ويتلفظون بالا قوال المأثورة دون احياء مضمونها ، حتى اذا تصدى لهم طارئ ترددوا وانتحبوا ، واذا عظم شأنهم ، سكروا وتسكبروا وظلموا اخوانهم وضلوا سبيلاً .

فلا يسمعون غير صوت اهوائهم ، ولا يفقهون الا انطمع والضجيج . حتى افقدوا الارض زخرفها .

اما انا المتواضع ، فقد مررت بمغامراتي المستهجنة عند عامة الناس ؛ فلقبوني بالسندباد البحري .

الا انني حكمت خبرتي بالشدائد وفرجت كربتي بحسن التدبير ، فبجعلت من يقظتي نوراً ومصباحاً . ومن ذكرياتي منارة اضيء بها طريقي الى الادراك الاسمي .

وكان يقيني كبيراً بأن سلسلة رحلاتي هذه ، إنما قد تمت بإذن الله تعالى ، وإن القدر المحتوم قد ميزني لاداء رسالة تملأ على الناس .
هل في الوجود كله ابلغ من الفكر رسولا ، ومن العقل وسيطاً ،
نتمكن بفضلهما من الكشف على سر الوجود ، مهما اختلفت الآراء
والنظريات ؟

فاذا ابتعدت عن تفكير الناس الممزوج فيه الخطأ بالصواب ، فلا تأتي
آثرت رد الامور الى اصولها ، فمن جرد المسائل . من قشورها ، ونظر
الى ثمرة الواقع الصافي ، تحقق له ان ما من شيء يدوم على حال ، بل يدول
ويتبدل ويتطور معه القياس .

فعلى العقل ايضاً ان يمتد الى صلة الاشياء المترابطة المتطابقة .
فنكشف عنه الغطاء ، وتنقشع الغيوم ، وتظهر بعض الضوابط الخفية .

فالامور مرهونة بها لها من مناهل وذبول ، وهي تبدو مرتبطة
حلقات وسلاسل كشبكة الصياد ، غير ان الانسان يخشى العاقبة المجهولة كلما
يعمل ، فيقف امام مصيره خجولاً مكتوف اليدين ، الا انه اذا ما ادرك
نتيجة عمله ، بانت له فكرة التعادل والتوازن ، وفهم ان عليه ان يعلم هل
هو يريد العمل وراء الستار او على مشهد من الناس ، فيختار بين الرياء
والحُبث ، بين الصناعة والتصنع ، بين الواقع والخيال .

فلنكل من الامور وجهان ومن تمنع بهذا لا يرى شيئاً مستحيلاً .
واخلت حياتي من سليقة الحيرة والتردد ، واصبحت مرشد اهل

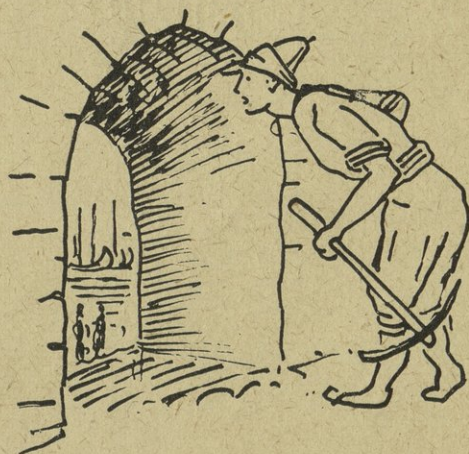
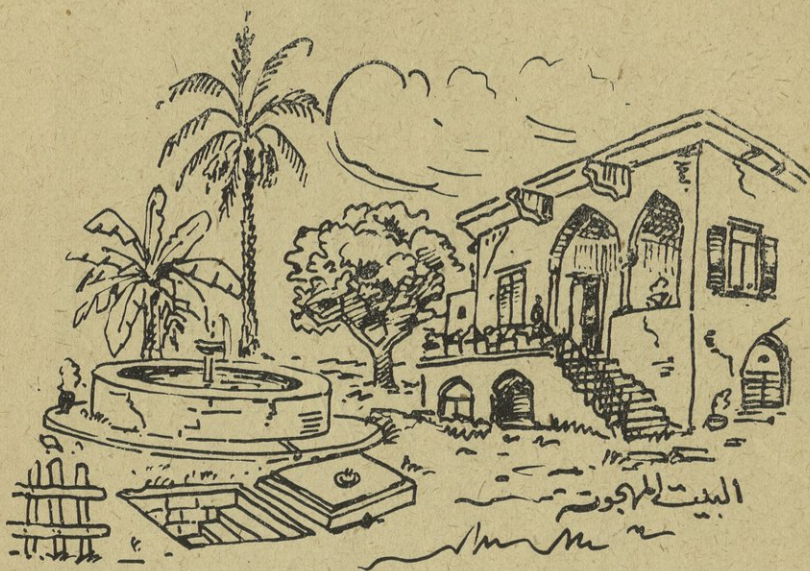
المحلة ، وازدادت سعادتي بما كنت اعهد من قوة في نفسي . وجلادة
وايمان حي ، واستيعاب الحقائق والمرامي ،
فما من اسطورة تيمنا الا كان لها راوي .

وما من شعلة تتصاعد الا وقد كان لها معالج ، وما من بلد طيب الا
اخرج نباته باذن ربه .

ومن أدهش ما طرأ علي حقاً ، انني عبثاً حاولت ان اتفقد مكان
الدهليز ، فلم انجح .

استعنت بالفعلة والبنائين فحفروا الارض بطولها وعرضها ، فلم يعثروا
الا على تراب وحجارة ، كأن قلباً من القوالب كان قد تحطم بحسب
قول العامة ، فاختلطت اجزأؤه بالتراب .

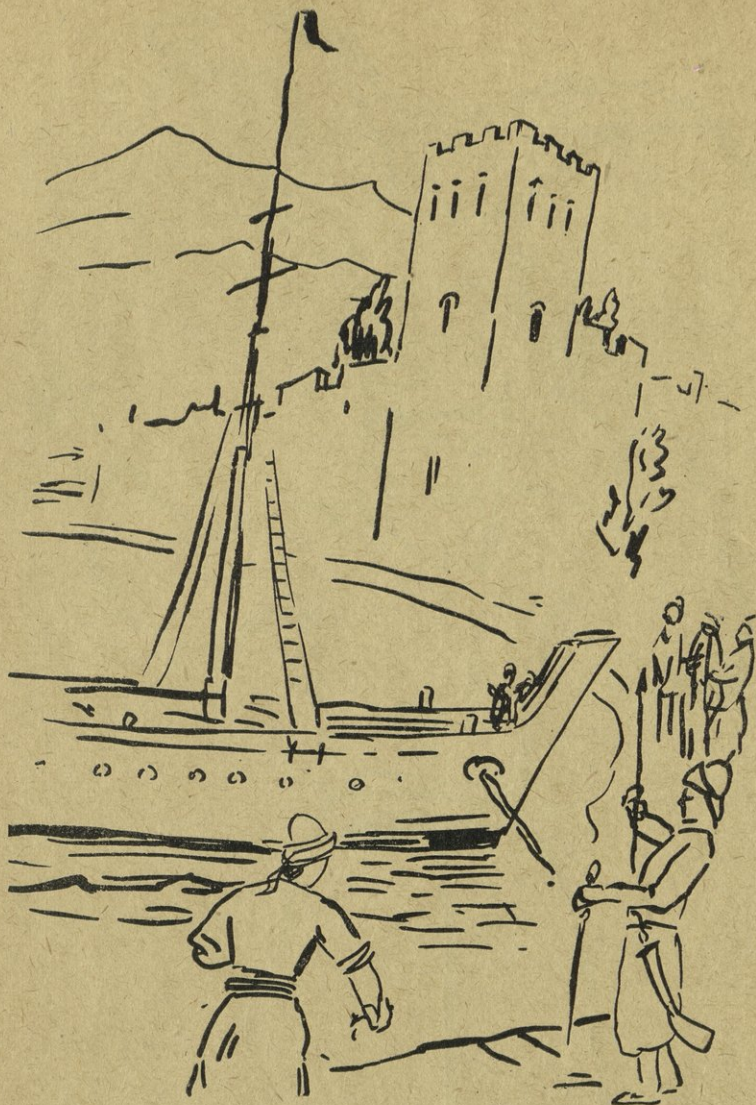




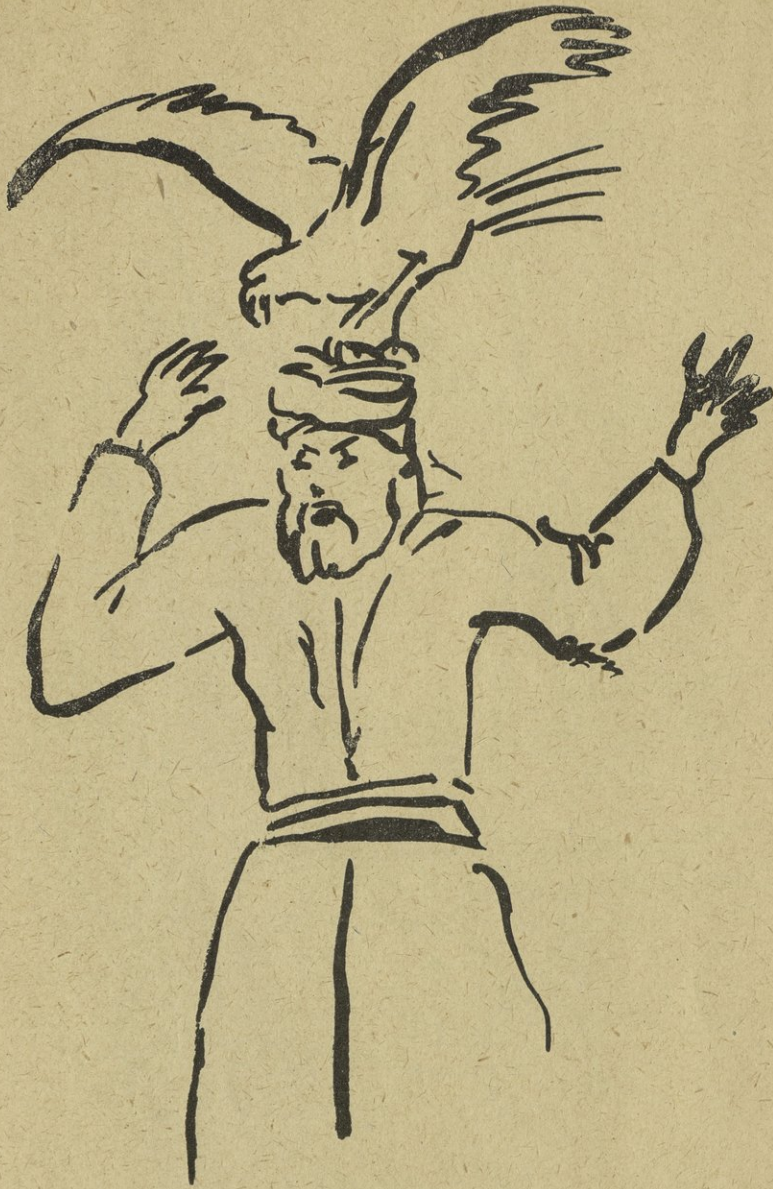
منظر البيت المهجور ، ومنظر البحر من الدهليز
(فصل البيت المهجور)



سفينة اولها رأس فرس
(الرحلة الاولى)



رج عربي شايخ
(الرحلة الثانية)



الطائر يحط على رأس شريف (الرحلة الثانية)



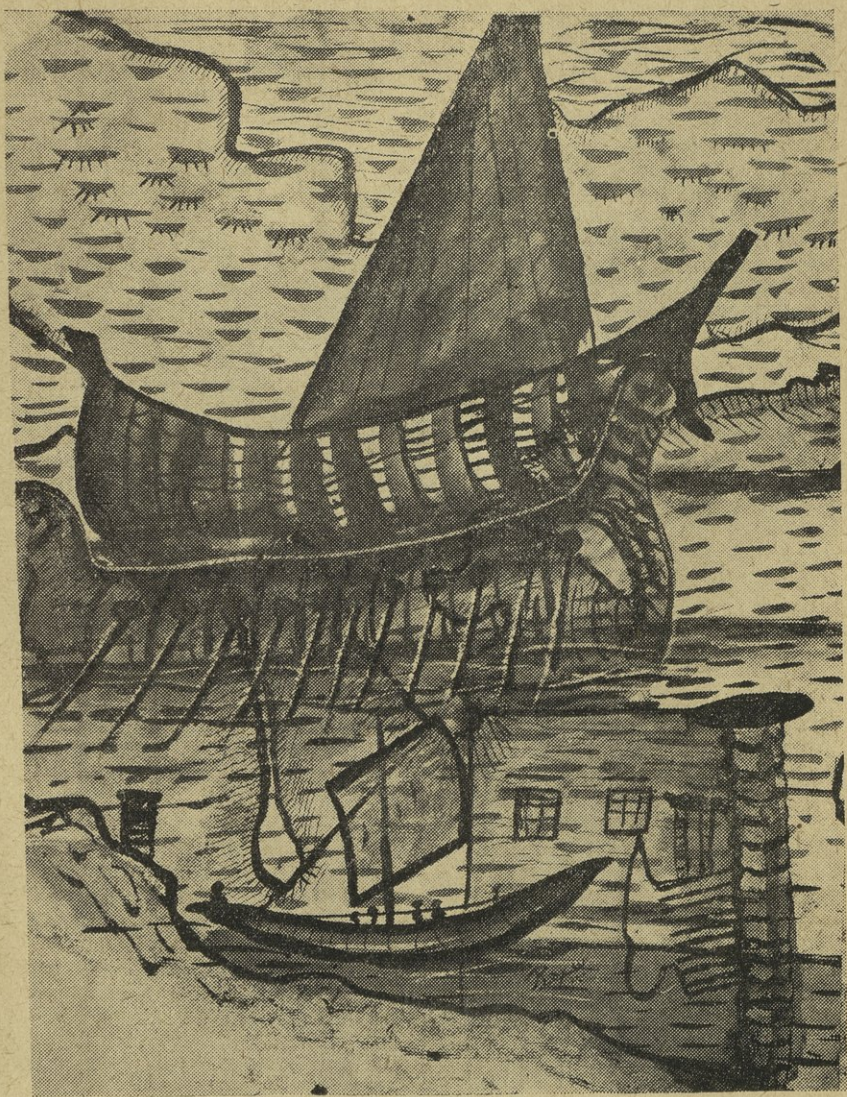
قراء على الشاطئ
(الرحلة الثالثة)



الطواف حول ملكة جزيرة الاساطير
(الرحلة الرابعة)



الدرويش
(الرحلة - السابعة)



السفينة





الخاتمة

لا تعجب لما شاهدته ، في سيرة شريف الاثر ، من مسائل اشكلت عليك . فقد تكون سيرتك ايضاً مليئةً بمثلها . ويصعب عليك ان ترى فيها الانسجام المعهود ، الذي يطمئن اليه العقل ، اللهم الا اذا اجهدت خيالك ، وجمعت ما كان مشتتاً من صورها ، وأعدت سبك الرواية على هوائك .

فسيرة كل انسان مجموعة من المتناقضات قد تزول على لسان الراوي الذي ينسج حياته على غراره ، فتأتي منسجمة متماسكة ، لكنها لا تمت الى الحقيقة الراهنة بصلة ، فتبدو فصولها واضحة جلية كنور الشمس والقمر ، وحرارة النجوم والكواكب .

وهل نسيت ما طرأ عليك من حوادث مبهمة غير مفهومة حاكها لك الزمان على منواله المستور ، وقد مررت انت ايضاً باطوار ومعاكسات ، اذا امكن لك ان تعيها في هذه اللحظة ، ظهر لك من الغربة والوحشة ما يشبه فصول الاساطير

فالحياة فيها اضواء وفيها ظلال .

انت فيها حركة دائمة لا تستوي على حال ، وخاطرك ابداً قلق مضطرب ، لا يترك لك اليقظة الكافية لكشف القناع عن المشاهد التي كانت تشير فيك الحيرة والريبة ،

فاذا ضاق عقلك عن استيعاب الوضع الراهن ، استجلبتك مناطق

الغموض وما فيها من نور كامن .

انت تبحث عن اشياء واشياء ، فلا تجد في النهاية الا نفسك ، تلك
النفس المشوهة التعسة .

وما تكاد تتحقق من قصر باعك ، حتى تضحي في عالم الموتى ،
ويبقى وجه ربك ذي الجلال .

فانظر اذن الى المجاهل والابعاد ، الى مواطن الاسرار والرموز .
وانتفت الى البحر منبت كل تفكير واسع حي ، فقيه هالة وعبر .
انه ينفذ الى الآفاق ، الى قرص السماء ، الى ما وراء الدنيا . فكل
شيء فيه قريب وبعيد . انه ينفث من حيل الزمان الف حيلة يكذب بها
شهادة العقل والنظر . فالألوف فيه ضائع ، والمجهول فيه يخالط المعلوم . انه
يعكس لون السماء . ويضم الاغوار . فكم من حبيب اخفى ، وكم من مكروه
احل ؟ انه يصل السبل ثم يفرقها ، فتتلاشى ، فلا يغررك اذن خنوع
الشواطىء وسكونها ، فقد يعود من عبر . ويتوارى من حضر ، وكل
شاطىء آمن . قد يكون خليجه ميناء القدر .

بيروت في هذه القصّة

بقلم يوسف ابراهيم زربك

هذا المزيج من الاديّن . ادب الغرب وادب الشرق ، ومن الثقافة الشاملة ، علماً وتاريخاً وفناً ، ومن الخيال السحيق المرمى ، والبيان الحار في ميناء قدر فكتور حكيم .

وهذا السندباد الفكري الذي سيلفنا ، بعد هذا التمهيد ، بين جناحيه ويطوف بنا عبر الدهور ، ولكنه يظل في بيروت ، ليعرض علينا فلماً مثيراً أخذاً من حوادث جرت في هذه المدينة ، ثم روح معه مروضي بحار وجوّابي آفاق ورواد ادغال ، منتقلين من عصر الى عصر ، لئلا يرى الحياة استمراراً مستمراً ، لا جديد فيها الا القديم ، وان جديدها وقديمها لوحدة في الجوهر ،

وهذا القلب الاسطوري الكبير الذي سنرافقه يقارع البحار ، ويكافح الجن ، ويطارد الوحوش ، ليستقر بعد هول اسفاره المقيمة ، ومطاوحه المعقدة . قلباً حلواً عادياً ، ينشد حباً هادئاً عادياً ، على المنبسط الوداع من شطآن بيروتنا المتوارية - بيروت الكرنيتينا والرميلة ، والمدور ،

والقلعة ، والشامية ، والشونة ، والسنبطية ، والفاخورة وعين المريسة ..
الحلات التي عبث برموها قديماً « قراء » واقدام البيروتين خلال ألوف
السنين ، والتي كانت ، ولا ريب ، موأىء سفن الحضارة الى الغرب .

ان هذا المزيج المعطر في القصة العربية لا عهد للقراء بأن يقرأوه
- عنيت القراء الذين لا يعرفون الا العربية وحدها - ولست لأملك
التقدير في نجاح « المجازفة ... » وليكني املك الحق في استساغتها ، والنشوة
بالكثير من مرقصاتها ، واملك الحق في الحكم بأنها تضيف الى العربية
نبثاً زاهياً جديداً ، على رغم مما في بعض سطورها الجائحة من عبارات خلج .

ان الاستاذ الكبير فكتور حكيم الذي سلخ عشرين سنة من شبابه
الغض في تعريف ادباء العربية الى قراء الفرنسية ، وكان فيما كتبه عن
انتاجهم متنازعا بين قلبه وضميره : يجب ان يشيد بهم ليوصلهم الى الفلك ،
فيمسك العدل بقله النيل الحب ليقف به حيث يجب ان يكون . ان
صديقنا وزميلنا فكتور حكيم الذي خدم الادب العربي بخير ما يخدم به
هذا الادب ، يدشن اليوم انتاجه العربي بثروة من صميم هذه الارض
التي اسمها بيروت ، يصح ان يرى فيه كل منا وجه جدوده - او وجهه ، في
حكاية الاستمرار .

ولولا هذه المحلية التاريخية في كتابه البلدي لما اجزت لنفسي ان امهد له
ولولاها ، لنصحت لصديقي بأن يقول لظه حسين ، عميد الادب

العربي ، ان يقدم انتاجه الجديد لقراءته الجدد .

وحسبي من نصحي ان صديقي صاحب « ميناء القدر » يستحق النصح :
ذلك لأن « ميناء القدر » والادب السامي والقلم الحبيب ثلاثة في واحد ،
اسمه : فيكتور حكيم . رعاه الله .

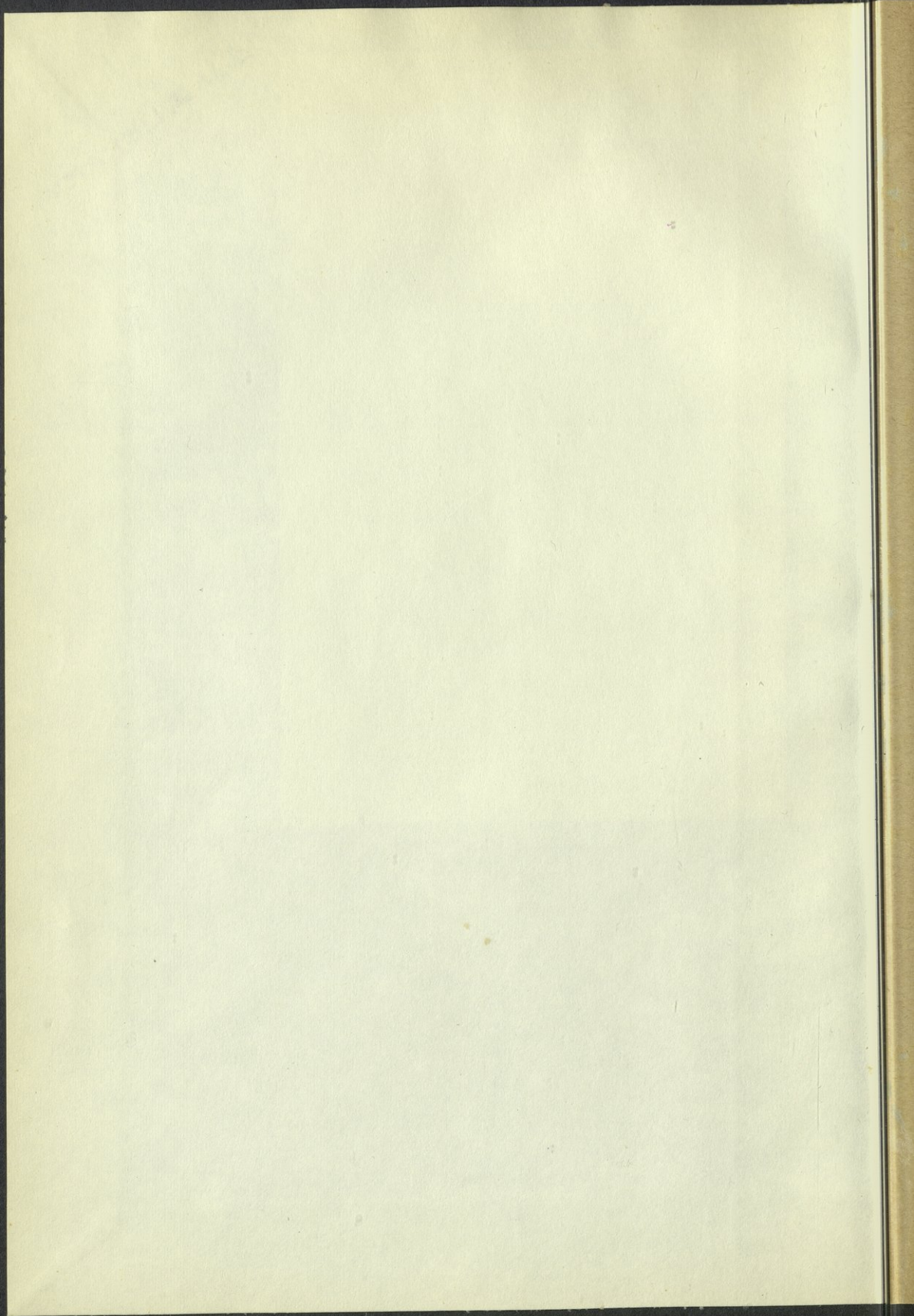
بمير سيف ابراهيم بزيك

الحدث غرة كانون الاول ١٩٥٥



فهرست

صفحة	مقدمة : للاستاذ سعيد عقل
(١)	
(د)	الاهداء
٣	المقدمة
٤	قصة البيت المهجور
٨	الرحلة الاولى - فطرة الطبيعة
١٨	الرحلة الثانية - المعاكسات
٢٨	الرحلة الثالثة - الغرام المفقود
٣٧	الرحلة الرابعة - بلاد الاساطير
٤٦	الرحلة الخامسة - جزيرة الاعماق
٥٦	الرحلة السادسة - بلاد القدر
٦٤	الرحلة السابعة - الخلود
٧٣	رسوم - بريشة الرسام سعدي
٨٠	رسوم رمزية - بريشة الرسام عارف الرئيس
٨٣	الخاتمة
٨٥	بيروت في هذه القصة : للاستاذ يوسف ابراهيم يزبك
	- رسم الغلاف للرسام بوردیس نوفیکوف



[illegible]

U. S. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY



